ريم بسيوني

رواية

دكتورة هناء

ريم بسيوني

دكتورة هناء

حق النشر

رواية

دكتورة هناء

تأليف: د. ريم بسيوني

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين

أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية

أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الترقيم الدولي: 978-977-14-5281-2

رقم الإيداع: 2015/13741

الطبعة الأولى: يوليو 2015

21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

تليفون: 33466434 - 33472864 02

فاكس: 33462576 02

خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com

كلمة

«الرجال تميزوا عنَّا دائمًا بقدرتهم على أن يقصُّوا قصصهم... فالقلم في يدهم».
جان أوس-تن
كاتبة بريطانية 1817

إهداء

إلى كل امرأة شرقية تمسك بالقلم؛ لتكتب قصتها بيدها.

أيًّا كان نوع القلم!!

فلها شرف المحاولة.

وإلى كل مصري يعشق بغزارة ويكره بغزارة،

ويأكل الحلويات الشرقية.

- 1 -

هناك أيام في حياة الإنسان تمرُّ في هدوء ورتابة، وهناك أيام تمرُّ في نشوة عارمة، وأيام تمرُّ في ضيق وكسل، وأيام! ربنا يكفينا شرَّها. وكان هذا اليوم بالذات يبدو كئيبًا طويلًا كأيامها الماضية، وبصفة خاصة لأن هذا هو يوم عيد ميلادها.. الأربعين.

وكانت قد أقسمت لنفسها منذ عشرين عامًا إنها في عيد ميلادها الأربعين سوف تقيم حفلًا كبيرًا تدعو له زوجها، وأقارب زوجها، وأصدقاء أولادها، وكل الضباط، وكل الموظفين، وكل ربَّات البيوت، وكل من له سلطة وحق اتخاذ القرار، وكل من يملك مصيره بيده، وكل من يصنع قدره، وكل العمال والفلاحين.

وعندما جاء اليوم، كانت هناء وحيدة وحدة تضيق منها القطط البرية في بيت امرأة عانس.

عانس! كلمة مخيفة ورهيبة.

ولكنها ليست عانسًا، ولا تبدو في الأربعين على الإطلاق. نظرت إلى نفسها في المرآة، تبدو في الثلاثين، ربما في العشرين، فحجمها ضئيل، ومعصمها رفيع ورقيق.

وكيف تصاب المرأة بالكهولة؟ عندما يفقد معصمها رونقه! وكان معصمها في قمة رونقه، وملامحها الصغيرة الحادة لم تتغير. لم تزل ملامح فأر رمادي صغير، وجسدها لم يفقد رونقه، وحتى التجاعيد الطفيفة حول عينيها ليست واضحة بالعين المجرَّدة.

وكان يومًا مملًّا ومخيفًا. وكانت شجاعة، وتخاف من مواجهة هذا اليوم. وكعادتها كانت منظمة وتكتب كل خططها لليوم.

في الساعة التاسعة ستذهب لزيارة أستاذتها في المستشفى بعد أن أصيبت بجلطة طفيفة، ثم تحاول من جديد مقابلة رئيس القسم، ثم تجهز نفسها للسفر غدًا إلى المؤتمر العلمي.

وكان شيء واحد يسيطر عليها.

فكرة واحدة تأكل عقلها.

سوف تذهب لرئيس القسم وهي لم تزل عذراء.

سوف تجهز للمؤتمر وهي لم تزل عذراء.

وسوف تتم الأربعين وهي لم تزل عذراء.

وكانت الفكرة تصيبها بالقرف، وكان لابد من مخرج، فعذريتها أصبحت تخنقها وتطرحها أرضًا. عذريتها التي حافظت عليها سنين أصبحت عدوها اللدود. ومن يستحق أن يفض بكارة دكتورة هناء؟ هل وُلد من يستحق هذا أم لم يولد بعد؟

وكانت فكرة واحدة تسيطر عليها؛ اليوم لا بد أن تفقد عذريتها، سريعًا، وإلَّا أصبحت عانسًا كئيبة في الأربعين. إذا فقدت عذريتها اليوم فستصبح امرأة في الأربعين. وهذا شيء مُشرِّف. أما أن تبقى فتاة في الأربعين -لأن من يستحقها لم يولد بعد- فهذه كارثة، وهي عملية وتعرف ماذا تريد.

جلست دكتورة هناء سعد تتأمل سكرتير رئيس القسم في عصبية وترقُّب وغيظ لم تشعر بمثلها من قبل. لو كانت هناك رغبة واحدة في حياتها اليوم فهي أن تدق على رأس عبد الحميد سكرتير رئيس القسم بمطرقة صلبة وقاسية حتى ترى وتشعر بدمائه على يديها وأنفها وعينيها.

كان يقول بلهجة الحاكم بأمر الله يوم أن منع الملوخية وحرق شوارع القاهرة: يا دكتورة هناء..قلت لك الدكتور سامي مشغول قوي.

تنفست الصعداء، وقالت في صوت حاد مرتعش: يجب أن يمضي على الموافقة على سفري اليوم. لو لم يفعل فلن أستطيع أن أسافر إلى المؤتمر ولو لم أسافر...

قاطعها الرجل في ضيق: يا دكتورة هناء قلت لك مشغول.

ثم أدار وجهه عنها في ازدراء، وبدأ في التكلم مع أستاذ آخر.

لم تكن مستعدة للاستسلام. يجب أن تسافر غدًا. واليوم يجب أن تفقد عذريتها، ويجب أن تنال من السكرتير، ويجب أن تفترس حقها من فم الذئاب.

هذا هو عصر الافتراس، وعصر عبد الحميد، وعصر الخوف والنفاق والكسل، وعصر الطغاة والمستعمرين. هذا عصر تكرهه وجو لا تعرفه، وهذا السكرتير يثير القرف في نفسها.

أغمضت عينيها وهي تجلس وتستمع للإطراء على السكرتير من كل أستاذ جامعي يتمنى رضا رئيس القسم.

كم جلست؟.. كم بقيت؟

حتى سمعت صوت السكرتير القوي: دكتورة هناء.. الدكتور سامي عايز يقابلك.

قامت في خطًى ثابتة بفستانها الفضفاض وشعرها الأسود وحذائها الغريب البرتقالي، وفتحت الباب في ثقة، ونظرت إلى زميلها المتفوق في النفاق والعلاقات العامة! رئيس القسم. وكانت تكره سامي وزوجته وابنه المعيد وكل عائلته التي تعمل في الجامعة. كانت تكره سامي الرجل وسامي الأستاذ.

وكان الشعور متبادلًا.

قال في سخرية: تريدين الذهاب إلى أمريكا يا هناء؟

كان يناديها هناء، وكان عليها أن تناديه بدكتور سامي! وكانت تكره أن تناديه.

قالت في فتور: أريد الموافقة على المؤتمر. طلبت موافقتك منذ ثلاثة أشهر ولم توافق بعد، لماذا؟

قال في حدة: أنا من أسأل وأنت تجيبين، وليس العكس.

شعرت بالحرارة تسري في عروقها، وقالت في قوة: اسأل إذن؟

نظر إلى تل من أوراق الامتحانات، وقال: لم تصححي امتحاناتك. يمكنني تحويلك إلى التحقيق!

قالت في قوة وكل جزء من جسدها يهتز: لم أصحح هذه الأوراق؛ لأنني لم أدرّس هذه المادة، وأنت تعرف هذا. درَّسها دكتور علي ثم سافر إلى السعودية إعارة، وأنت وافقت له على الإعارة ولا توافق لي على حضور مؤتمر علمي سيفيدني في...

قاطعها في حزم: هل قلت: أنت؟ حضرتك..تقصدين حضرتك! هناء إما أن تصححي الامتحانات أو لن أوافق.

فتحت فمها فأكمل: ليس عندي وقت لأضيعه.. عندك خمسمائة ورقة إجابة، هل تستطيعين تصحيحها حتى الصباح؟ إذا كنت تستطيعين، فسأمضي لك على الموافقة، وسوف تمضين لي على أنك تسلمتِ الأوراق، وسوف تسلمينها لعبد الحميد في الصباح.

نظرت إليه في ذهول وفزع واليأس يتسلل إلى رأسها والأفكار تتراكم بداخلها.

عيد ميلادها الأربعون.. مازالت عذراء.

غدًا ستذهب إلى أمريكا حيث يقطن حبها الأول، رامي المصري.

واليوم يجب أن تفقد عذريتها، وتصحح خمسمائة ورقة، وتصفع سامي صفعة قوية، ثم تدك رأس عبد الحميد بمطرقة قوية، ثم تفقد عذريتها.. ثم تذهب إلى المؤتمر.. وربما تقابل رامي، وربما لا.

ثم تفقد عذريتها.

ستعود إلى البيت ثم..

جلست على المقعد تحملق في عبد الحميد من جديد وعلى فخذيها خمسمائة ورقة إجابة، بالكاد تستطيع أن ترى وجه عبد الحميد.

- دكتورة هناء.

نظرت من بين الأوراق إلى الشاب الواقف أمامها وقالت في ميكانيكية: إزيك يا خالد.

ابتسم لها الشاب وقال وعيناه لا تلتقيان بعينيها أبدًا: عايزة مساعدة يا دكتورة؟ أشيلك الورق ده؟

قالت وهي تحاول الوقوف: ياريت يا خالد.

حمل الأوراق منها، فقامت واتجهت إلى الباب دون أن تنبس بكلمة إلى عبد الحميد.

سارت بجانب الشاب ونظرت إليه، رفعت عينيها إلى رأسه، كان أسمر ونحيفًا. كان مصريًّا وعيناه أبدًا لا تقابلان عينيها. الخجل ينبثق من كل ملامحه، والثقة تسطع من بين شفتيه، وكانت تحتاج رجلًا. وكان خالد لم يتعدَّ الخامسة أو السادسة والعشرين.. وكانت هي في الأربعين ولكنها كانت صغيرة وضئيلة، والشعر الأبيض كانت تعالجه بسرعة بصبغة سوداء قوية تناسب حاجبيها الأسودين الثقيلين.

قال في هدوء: إلى أين؟

- كنت تريد دكتور سامي يا خالد؟ أنا آسفة سوف أعطلك عن..

قاطعها في هدوء: سأذهب له بعد ساعة، هل تحتاجين مساعدة يا دكتورة؟

نظرت لعينيه، فأدار عينيه في خجل. ابتسمت قائلة: أحتاج إلى الكثير من المساعدة. الكثير من المساعدة.

قال في نفس هدوئه الذي كان يستفزها: تحت أمرك.

- شكرًا يا خالد.. فاكر لما كنت بدرسلك شعر فيكتوري، كنت أحسن طالب عندي.

- ربنا يخليكِ يا دكتورة.

كان خالد طالبًا مثاليًّا، وكان مطيعًا، وكان خدومًا، وكان يعمل بجد ونشاط، وكان فقيرًا. وكانت ترى فقره في هواياته وعمله المستمر وحنقه على الأغنياء، وطريقته البسيطة في التعبير الصريح أحيانًا عن نفسه، وطريقته المحنكة في البعد عن الصراعات.

قالت في فرح: هل يمكنك أن تساعدني في تصحيح هذه الأوراق؟ أنت تعرف يا خالد عندي مؤتمر غدًا، ولو لم أنته من تصحيح كل الامتحانات فلن أستطيع الذهاب إلى المؤتمر.

قال في تلقائية: بالطبع يا دكتورة. تحت أمرك. اتركي لي نصفها، وسوف أسهر عليها اليوم.

قالت مسرعة: لا. هذه مسئولية. يجب أن تصححها أمامي. معلهش يا خالد أنا عارفة إنك خدوم. ممكن تيجي تصححها عندي؟

نظر إليها في شيء من الفزع، ثم قال: لو حضرتك سيبتيها أنا..

قاطعته: خالد لن أستطيع أن أتركها، وأنا فقط أطلب منك أن تصححها في بيتي، وأنا لست وحيدة في البيت.

تنفس في ارتياح قائلًا: أنا آسف كنت أظن أنك.. بالطبع سآتي. بعد صلاة المغرب كويس؟ أصل عندي شوية مشاوير.

قالت في انتصار : آه كويس جدًّا.

أضاءت نور الصالة الكبيرة وألقت بالامتحانات على المنضدة الكبيرة. كان بيتها قديمًا، كان بيت والديها.. وهنا ودعتهما الاثنين، وهنا ستقضى بقية عمرها، ربما وحيدة، وربما لا. هنا عاشت معظم الأربعين عامًا، وأحبت بيتها، وأصبحت لها عادات محددة لا تستطيع العيش بدونها. كانت تقتصد في الكهرباء على عكس أختها، وكانت تطفئ النور حتى الساعة السابعة مساءً كل يوم وفي السابعة تضيء نور حجرتها فقط، وتبدأ في القراءة واحتساء القهوة. وقبل النوم كانت تفتح الشباك الكبير في حجرة نومها،

وتتنفس في عمق، وتنظر إلى الشارع المزدحم في الزمالك، وتشرب الكاموميل الذي نصح به البعض والذي تشربه قبل النوم منذ عشر سنوات عندما ماتت والدتها. ثم تذهب إلى سريرها، وتتمنى النوم كما يشتهي الرجل امرأة يعشقها. وأحيانًا يأتي، وأحيانًا لا يأتي.

وكانت دكتورة هناء حريصة ومنظمة. وكان لكل شيء مكان في المطبخ، وكانت لا تأكل الحلويات إلا عندما تزور أختها. وكانت تأكل اللحم مرة في الأسبوع فقط، وتعشق اللحم المشوي، ولا تحب الشيَّ. كانت تشتري اللحم من محل حاتي، ثم تبدأ في عملية تطهيره التي تأخذ عادةً ساعة. وبما أنها تأكل وجبتها الرئيسية الساعة السادسة مساءً كان عليها أن تخطط لشراء اللحم المشوي مبكرًا.

تبدأ عملية التطهير بالتخلص من الطحينة والسلطة والخبز، ثم وضع اللحم في الفرن لمدة نصف ساعة بعد التقاط نقاط المقدونس المتناثرة على اللحم بعناية وإتقان.

ولم تكن تحب الدكتورة هناء الزيارات، خاصة زيارات عائلتها. كانت ترى نظرة الطمع في عيني أخيها، ونظرة القلق في عيني أختها، وكانت تكره الطمع والقلق.

كان مطبخها كما تركته أمها منذ عشر سنوات، وكان نظيفًا، وكانت المأكولات الموجودة في البيت قليلة ومغذية. سلاطة.. مجهزة بعناية، وشوربة مجمدة، وأسماك مجمدة، وقطعة صدر دجاج تأكلها يوم الخميس بعد الانتهاء من عملها.

أمسكت بكوبها الخاص، وبدأت تعد القهوة في هدوء وهي تتذكر كلمات أختها الكبيرة: يا هناء.. لا رجالة ولا أكل طيب عايشة ليه! دي متع الحياة يا هناء.

نظرت لمعصمها الرفيع في فخر، هي جميلة وهذا يكفي. يجب أن تبقى جميلة ورقيقة وصغيرة ورفيعة و.. ترى من سيتذكر عيد ميلادها الأربعين؟

ماذا تعرف عن خالد؟ تعرف أنه يسكن في بولاق. كان يقول هذا كثيرًا وفي فخر، وكان واثقًا بنفسه، ولكن عينيه لا تقابلان عيني امرأة أبدًا. هل هو أيضًا بكر مثلها؟

ماذا تعرف عن خالد؟ تعرف أنه متدين لا يسهو عن صلاة، وتعرف أنه كان الطالب المثالي، وأن صديقه العزيز شاب ضرير، وكان خالد يساعده في كل شيء. وكان خالد مثالًا للمصري الطيب الصبور، وكان من الأوائل، وعُيِّنَ في الجامعة، وحصل على الماجستير في ترجمات القرآن، وكان رجلًا وكان شابًا وكان ما تريد.

جلست في هدوء وهي تحتسي القهوة وتنظر إلى ساعة الحائط السوداء. مشكلة. خالد متدين. ماذا تتوقع منه؟

وهي؟ تؤمن بالله، ولكنها تشعر بحنق غريب وإحباط لم تشعر به من قبل. ولا ترى جريمة في أن تفقد عذريتها، فالعفة تاج الفتاة في العشرين، وزينتها في الثلاثين، وكربها في الأربعين! ويكفي عفة، وماذا جنت من العفة؟ وهل تعرف رائحة رجل؟ لمسة رجل؟ ماذا تعرف عن الرجال؟ رامي لم يلمسها قط! ما بال الرجال في مصر؟ هل يخافون المرأة؟ ما المخيف في المرأة؟ ولماذا كل هذا التفكير؟ ولماذا كل هذه الشهامة! ولماذا لم تفقد عذريتها كل هذا الوقت؟! ولماذا لم تنس رامي مع أنه نسيها؟ ولماذا ضاع عمرها بين بعثة ومذاكرة وخوف وحب مستحيل؟

كانت غبية، وانتهى عصر الغباء.

كانت كسولة، وانتهى عصر الكسل.

وبعد أن تفقد عذريتها.. ماذا تفعل؟

تحتفل وتحتفل. تلقي بهذا القيد في نهر النيل، فالعوانس لا يتزوجن أبدًا. العوانس عار على المجتمع. الرجل لا يتزوج عانسًا في الأربعين، بل أرملة أو مطلقة. عندما تفقد عذريتها ستقيم احتفالًا كبيرًا وتدعو له دكتور سامي وعبد الحميد وأخاها وأختها والبواب ونجاة الشغالة وربما..

أمسكت ببطنها.. ربما آن لهذا الرحم النائم أن يصحو، وهذه البويضات التي ضاعت هباءً أن تُبعث. ربما آن للمرأة بداخلها أن تثور وتسيطر على الدكتورة المحترمة.

ربما آن لهذا المخدع أن يشتعل وينبض.

ربما..

خالد متدين. خالد لا تعرف عنه شيئًا.

خالد ربما يكون على علاقة، وربما يجدها باهتة وعجوزًا، وربما..

وهي قط لم تحاول إغواء رجل، أي رجل. لماذا لا تكره الرجال إذن؟ لماذا لا تقرر أن الرجال آفة من آفات المجتمع. لو كرهت الرجال فسترضى بالأمر الواقع كما فعلت أستاذتها من قبل. آه لو كرهت الرجال!

وهل تعرفهم أصلًا؟! ماذا تعرف عن الرجال؟

اليوم ستعرف كل شيء عن الرجال. كل شيء من مصدر موثوق به!

ولكن يجب ألَّا تنسى أن أمامها خمسمائة ورقة يجب أن تصححها وأن إغواء شاب كخالد لن يكون سهلًا.

كان عليها أن تفكر في كل الحيل التي قرأت عنها، فحياتها فقيرة وخبرتها يرثى لها. وكيف ستغويه؟

لم تكن تريد أن تغويه، كانت تريده أن يخترق هذا الحاجز الذي يقف عائقًا أمام أنوثتها، ولم تكن تريد إغواءه قط.

وتذكرت رواية الطريق إلى الهند وكيف دخلت الفتاة الإنجليزية إلى الكهف مع الرجل الهندي ثم اتهمته بأنه اغتصبها، ولم تكن متأكدة من الأحداث داخل الكهف. كانت تدرّس الرواية للسنة الرابعة، وكان خالد أحد طلابها وقال في دهشة: لا أفهم هذه الرواية، هل يقصد الكاتب فعلًا أن الفتاة الإنجليزية لا تتذكر حادثًا كهذا؟ هذا هراء. هذه حقائق لا تنسى.

ولكنها هي كانت تصدق الفتاة، وتعتقد أن من السهل على العقل أن يثمل دون خمر. من السهل على العقل أن يفقد السيطرة دون أن يبتلع صاحبه أية حبوب هلوسة.

ولكل عقل مدخل، ولكل عقل نقطة ضعف، ولكل عقل استعداد للثمالة!

وهي أكبر من خالد، وهي ذكية، وهي.. تحتاج إلى تصحيح خمسمائة ورقة، ثم تحتاج إلى أن تفقد عذريتها، ثم تحتاج إلى أن تصحو مبكرًا للرحيل إلى أمريكا.

ثم تحتاج إلى أن تنشط هذا الرحم الكسول، ثم تحتاج إلى أن تنتقم من سامي وعبد الحميد، وكل من له سلطة وسلطان، وكل من يخدم أصحاب السلطة والسلطان.

وقف خالد أمام الباب في خجل وتردُّد، فقالت مسرعة: اتفضل يا خالد.

دخل في هدوء، أشارت له بالجلوس. جلس على كرسي فقالت في جدية: هل نبدأ التصحيح الآن؟

نظر إليها وكانت تفهم سؤاله. قالت في ثقة مع أنها لم تعتد الكذب: نجاة الشغالة جوه في الأوضة لو كنت عايز حاجة.

هدأ بعض الشيء، وبدأ يصحح الأوراق على المنضدة الطويلة.

كانت تنظر إليه وهو يصحح الأوراق في تركيز. كان يعمل بجد، وكان يرتدي قميصًا كاروهات وبنطلونًا جينز.

قالت وهي تنظر إليه وتترك القلم من يدها: لا أعرف كيف أشكرك يا خالد.

قال دون أن ينظر إليها: عينينا ليكي يا دكتورة.

قالت مسرعة: عندك إخوات؟

- أخ وأخت.

- مثلي تمامًا. هل تزوجا؟

- أخي الصغير خطب منذ شهرين، وأختي في المدرسة.

قالت في لامبالاة: وأنت؟

قال وهو لم يزل منكفئًا على الامتحانات: أنا كنت مرتبطًا منذ سنة ولكن..

قالت في حماس: كانت زميلتك في الجامعة!

نظر إليها فجأة في شيء من الدهشة. دكتورة هناء لم يكن معروفًا عنها حب الاستطلاع. كان معروفًا عنها أنها صعبة في كل شيء، في الدرجات، في المعاملة، كانت محسوكة ومعقدة وتحيا في عالم آخر، ولم تكن تهتم بتفاصيل الآخرين قط، ولكنه كان معجبًا بأخلاقها وضميرها. كان معروفًا عنها أنها لا تحب الوساطة وتعمل بجد، ولم يكن يتصور يومًا أنه سيذهب إلى بيتها وستسأله عن حياته هكذا.

نظر إلى ساعته.. كانت الحادية عشرة، قال في تردد: الوقت متأخر يا دكتورة.. ممكن آخد الورق معايا وأجيبه بكرة الصبح؟ حسهر عليه طول الليل.

لقد أخطأت بسؤالها عن حياته! ها هي ذي تخطئ. قالت مسرعة: لا.. لا يمكن.

فتح فمه فقالت في قوة: ولكن إذا كنت تعبت فيمكنك أن تذهب وسأحاول أنا.

ساد الصمت برهة وهي لا تتنفس. ماذا لو رحل؟

كان عليها أن تبدو قوية واثقة.

ماذا لو وافق؟

قبل أن ينطق قالت مسرعة: أنا آسفة يا خالد، كنت أعتقد أنك كنت طالبًا عندي، وأنك لن تتردد في المجيء إلى بيتي.

قال في حزم: سأبقى ساعة.

قالت في عدوانية: هل تخاف من البواب؟ الكل يعرف أنك طالب عندي وأننا نعمل معًا.

- مش ممكن يا دكتورة أفضل هنا، ده ميصحش.

قالت في غيظ: ليه؟

قال في تلقائية: ميصحش. حرام.

قامت والاحمرار يبدو على وجنتيها: تحتاج إلى قهوة أو شاي؟

قال: ياريت يا دكتورة شاي بثلاث ملاعق سكر.

- ليس عندي سكر. لا أستعمله.

ابتسم قائلًا: أنت عكس أمي، لو لم يكن في بيتنا سكر كانت أمي ستعلن الحرب علينا جميعًا.

بدأ يتخلى عن تحفظه من جديد، ولم تكن تريد أن تتكلم. كانت تخاف أن تنبس بكلمة تخيفه، وكانت تريد عقله ثملًا. ولن يصبح عقله ثملًا قبل ساعات وساعات. كانت تريده أن ينغمس في التصحيح وينسى الوقت.

ومرَّ الوقت. وكلما مرَّ شعرت بالأمل يقترب.

قالت فجأة: هل تعتقد أن مساعدتك لي حرام؟ أعني أن تصحح أنت امتحانات مطلوبة مني، هذا استغلال؟

ابتسم وكانت المرة الأولى التي تراه مبتسمًا، وقال: ولكن هذه ليست مادتك. هذه مادة الدكتور علي، وهو سافر، لذا لا يهم من يصححها.

- ما رأيك في الدكتور سامي؟

- نصاب!

- عفوًا

- تريدين رأيي!

- لا تحبه؟

- هو نصاب، وأنا لا أحب النصابين.

- والدكتور علي؟

- دكتور محترم.

- وأنا؟

- صعبة بعض الشيء، ولا أدري ما نتوقعه في امتحاناتك، ولكنك طيبة وعندك ضمير.

- لم أكن أتصور أنك بهذه الصراحة. دائمًا تبدو متحفظًا أو صامتًا، ولا أدري بماذا تفكر.

- بماذا أفكر؟

- بماذا تفكر؟

- بعائلتي.

- تحبها؟

- هي كل ما أملك.

- أنا لم يعد عندي عائلة، توفي والدي، ولا أعرف شيئًا عن أخي وأختي.

- سافرا؟

- لا

- هناك قطيعة بينكم؟

- لا. أقصد، كل منا له حياته، ولا أحد يهتم بالآخر.

ساد الصمت برهة. لأول مرة ينظر إليها. التقت أعينهما، فقال وهو ينظر إلى ساعته: الواحدة يا دكتورة.

قالت في يأس: كم ورقة تبقت؟ أنا عندي خمسون، وأنت؟

نظر إلى الورق: حوالي أربعين.

صمت برهة ثم قال: هل يمكن أن أستعمل الموبايل؟

ثم أخرج التليفون، وبدأ في الاتصال بنمرة وهي تنظر إليه.. تتفحصه.

- أيوه يا قمر.. إزيك يا حاجة. معلهش حتأخر شوية.. لأ كلي علشان خاطري، يمكن ساعة كمان. طيب يا حبيبتي، خلي بالك من نفسك..لا إله إلا الله.

فتحت عينيها في ذهول: كنت تتكلم مع أمك؟

قال في تلقائية وهو يرفع ذراعه ويمدد ظهره على المقعد: نعم.

- تريد شايًا؟

- لو لم يكن عندك سكر فلا أريد شايًا.

نظرت إليه..لأول مرة تشعر بأنه رفع الكلفة بينهما. وهي لا تحب هذا. نعم تريده أن يشاركها الفراش الليلة، ولكنها أبدًا لا تريده أن يرفع الكلفة بينهما.

بدأت في تصحيح الامتحانات من جديد، وساد الصمت ساعة أخرى، ثم قام قائلًا وهو يبتسم: خلاص يا دكتورة. كل الامتحانات اتصححت.

قام. نعم دون كلمة، وانتهى كل شيء. كل خططها، كل آمالها، سوف تبقى عذراء إلى الأبد، سوف تموت عذراء.

قالت في فزع: خالد متمشيش!

نظر إليها في ذهول فقالت مسرعة: عندي حاجة عايزة أديهالك.

لم يكن يفهم ماذا تريد وماذا حلَّ بالدكتورة هناء.

توقف في مكانه، فجرت هي إلى المطبخ القديم، نظرت إلى السقف العالي. كم هو عال وكئيب و.. لم تنظفه الخادمة. نعم لم تنظفه. عندما تعود من أمريكا سوف تتفاهم مع خادمتها التي لم تنظف سقف المطبخ. أما الآن فعليها أن تغوي هذا الشاب الذي بدأت تكرهه. وبدأ صبرها ينفد.

وكانت تعرف ماذا تريد وماذا ستفعل وكانت خطتها مرسومة بعناية.

أمسكت بالكبس الرئيسي وهي في المطبخ، وخلعت الكبس من البريزة، وانقطع التيار كما أرادت.

تنفست الصعداء، في الظلام ستستطيع أن تعطيه ما تريد، وفي ظلام الليل وظلام المنزل ربما يصاب بالشالة!

قالت في صوت عال: النور اتقطع يا خالد حجيب شمعة.

وكانت الشمعة جاهزة أمامها.

أضاءتها وعادت إلى الصالة. كان هو قد فتح باب الشقة وأمسك به.

قالت: خالد لماذا تقف هنا؟ ادخل من فضلك.

قال في صرامة: يجب أن أعود.

قبل أن يتحرك قالت من جديد: أرجوك انتظر خمس دقائق هناك مشكلة كبيرة.

لأول مرة ينظر إلى عينيها وكأن الشك بدأ يساوره وكأنه لا يعرفها.

قال في فضول: مشكلة؟

أغلقت الباب، وقالت وهي تقف أمامه: هذا البيت مسكون!

انفجر في الضحك: "مسكون"؟

أمسكت بيده قبل أن يتحرك، وبدأت في الكلام المستمر حتى لا ينطق. جرته إلى الكنبة الكبيرة. بدا وكأنه مستسلم لها.

- اسمعني يا خالد. أنا شفتهم بنفسي بيطلعوا لما النور يتقطع، تبدأ الست تطير زي الدخان، وبعدين الراجل يولّع في الشمع ويطفيه والأصوات.. محدش يسمعها غيري.

نظر إليها في دهشة ولم ينطق. جلس على الأريكة يستمع في صمت.

كانت تنبس بالهراء، وكانت تعرف، ولم تكن تعتقد في هذه الأشياء، ولكنها كانت متأكدة أنه هو يعتقد فيها.

قالت في خوف: هل تسمع شيئًا؟

قال والمشهد قد بدأ يستهويه: هل تمزحين يا دكتورة؟

- أبدًا. هل تؤمن بالجن؟

- بالطبع.

- هل تعرف أحدًا ممسوسًا؟

- ممسوس.. كيف؟

- عليه جن يعني.

- آه.. طبعًا، عمتي كان عليها جن.

- وعملت إيه؟

- صلت وواحد شيخ تقي ساعدها.. كانت تعبانة قوي.. تصوري الجن قرصها في صوبع رجلها واتشل !

تنفست في ارتياح. لقد اقترب الهدف.

- هل تسمع يا خالد؟ ماذا أفعل في هذه الأصوات التي تلاحقني. تصور يوم موت أمي كنت أسمعها طوال الليل و..

صمتت ولم تعد تكذب.

- كنت أخاف من دخول حجرتها، لم أزل أخاف من دخول حجرتها، دائمًا أشعر بها واقفة بجانب السرير وتوبخني لأني ما زلت وحيدة.

هل كانت المرارة تصاحب صوتها؟ هل سمعها؟

ساد الصمت. كانا يجلسان على الأريكة. لم تتحرك.. نظرت إلى الشمعة، ربطت عينيها بها، وشعرت بدموع تتساقط في صمت.

هذه فرصتها. وكانت تعرف أن الضعف صفة من الصفات الحميدة في المرأة. المشكلة أنها لم تكن يومًا ضعيفة، ولم يجرؤ يومًا رجل على أن يخترقها. والرجل يريد النصر، والمرأة تريد الهزيمة، وهي تكره الهزيمة والضعف.

مسحت دموعها، وقالت مسرعة: أشعر بالخوف.. من الظلام. من الوحدة. من.. الموت الذي يحاصرني.

بلع ريقه وهم بالقيام فأمسكت بيده قائلة: لا تتركني يا خالد. ليس الآن. لا تتركني في الظلام.

جلس من جديد في هدوء.

وكان عليها التصرف سريعًا.

ألقت برأسها على صدره في بطء، وهمست وهي تضع يدها على صدره وتلصق جسدها بجسده: ترى أيوجد جن في هذا البيت؟

همس في ارتباك: لا أدري.

لم يتحرك. لم يدفع بها. ماذا يدور بعقله. كانت تود أن تعرف. وربما لن تعرف أبدًا.

ألصقت خدها برقبته في تلقائية وهمست: أكره الليل والوحدة والصمت و.. أنت؟ لماذا لا تتكلم؟

- دكتورة هناء الشمعة على وشك الانتهاء.. هل تريدين..؟

- أريد..أن أهبك شيئًا، هل تتذكر؟

- لا أعرف إن كنت أستحقه!

- لم يعد غاليًا.. أصبح قديمًا وباهتًا.

- لا أعتقد أنك تملكين أي شيء قديم وباهت.

- أعطني فرصة.

- لماذا أنا؟

- لا تسأل. لا تتكلم.

انطفأت الشمعة وكانت فرصتها وهي تتحسس جسده وهو يضمها في قوة.

ولم تكن تحب القبلات، ولم تكن تعرفها ولا تريدها. كانت تريد شيئًا واحدًا، ولم تعد تحتاج إلى كلمات وكل ما شعرت به هو معصمها الرقيق ينبض بين يديه. والهدف يقترب.

كم مرَّ..

كانت تتنهد وهي تبتسم لنفسها وتنام على الأريكة والارتياح يبدو على كل جسدها.

وكان قد رحل.

من طبعها الوصول إلى أهدافها في سرعة وحرفية. ولم تكن تحتاج إلى أن تخلع كل ملابسها، ولم تكن تريد كل المقدمات الآن. كانت تريد تنفيذ المهمة فقط.

وكانت قد وهبته الهدية، وكانت الساعة الخامسة صباحًا. وكانت متعبة، ولابد أن

تفكر في أمريكا والمؤتمر ونجاحها المبهر اليوم.

صوت الأذان دائمًا يريحه ويعطيه الثقة في الغد، خاصةً أذان الفجر. أما اليوم..أما اليوم..

أغمض عينيه، وطأطأ رأسه، ولم يشعر باليد التي تمسك بكتفه في البداية حتى سمع صوت صديقه: خالد..الصلاة يا خالد. ماذا بك؟

لم ينظر إليه.. كان محمد صديقه الضرير. أقرب صديق إليه. أقرب إليه من أخيه.

دق محمد على كتفه من جديد، وقال وهو يتحسس طريقه في الظلام المكتوب عليه منذ الطفولة.. كان يتحسس طريقه لصديقه ولا يجده!

- ماذا بك؟ لماذا تأخرت؟

تنفس في بطء وكأنه يحاول أن يفهم ماذا جرى أمس، ثم قال في هدوء: كنت أساعد الدكتورة هناء في تصحيح الامتحانات.

ابتسم محمد وهو يتحسس المقعد قبل أن يجلس، وكانت أنامله معتادة على أن تتحسس كل شيء وأي شيء دون خجل أو تردد.

- دكتورة هناء المعقدة! هل تتذكر محاضرتنا معها.. كانت دائمًا تشرح بإفاضة، ثم تنتظر في تحدٍّ وكأننا من عالم آخر ولن نفهم كلمة مما تقول. ست قوية ولكن مسكينة!

قال في شيء من اللامبالاة: مسكينة.. لماذا؟

- لا أدري.. في هذه السن.. كم تبلغ من العمر؟ في أواخر الثلاثينات على ما أعتقد.

صمت فجأة ثم قال وفكرة قد طرأت له: هل تظنها ما زالت عذراء؟

قال خالد في ضيق: حرام نتكلم على أعراض النساء وقت صلاة الفجر. اذهب لتصلي.

- وأنت؟ لماذا لا تصلي؟ ماذا فعلت؟ هل ذهبت إلى غانية!

قال في غضب: كيف تقول هذا؟

- كنت أمزح.. ولكنك لا تتهاون عن صلاة الفجر أبدًا..لماذا اليوم؟

لم ينطق وكان يشعر بضيق غريب.

قال محمد في مكر: بذمتك ألم تتساءل ما إذا كانت عذراء أم لا؟ أنا أظنها عذراء.. صوتها به شجن غريب. هل هي جميلة يا خالد؟

- لا أدري. ربما؟

- كنت تصف لي كل شيء.

- هل سنتكلم عنها طوال الليل؟ أنا متعب يا محمد.

- فلنتكلم عن صفاء إذن؟ آه كم أشتاق إلى امرأة وأنت في يدك الزواج من صفاء في ثوان ولا تفعل!

- ربما أفعل.

- قررت أن تعود إليها. هذا أفضل. هي بنت طيبة وبتحبك! وأمك وأختك مش عايزينك تتجوز، لكن أنت محتاج للجواز. كلنا محتاجين للجواز. الراجل بالذات غير الست. الست مش بتحس باللي إحنا بنحس بيه. ممكن تعيش من غير جواز.. يمكن أن تبقى عذراء إن أرادت، أما الرجل فلا يستطيع.

- نعم إن أرادت.

- عذراء هي إذن؟

فكر قليلًا ثم قال: إمَّا أنها عذراء أو كانت عذراء.

- لا أفهم.

- لا يهم..اذهب لتصلي.

- ماذا بك يا خالد؟

- اليوم.. انقلبت حياتي رأسًا على عقب. شيء لم أتوقعه ولم أطلبه ألقي على كاهلي. فليسامحني الله. لم أكن أريد هذا.. اذهب لتصلي وادعُ الله لي ولا تسألني أبدًا.. ماذا حدث اليوم؟

- 2 -

نظر البواب للدكتورة هناء وهي تحمل الامتحانات وتتجه إلى سيارتها البيجو القديمة في ازدراء، وقال وهو يدير وجهه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

توقفت والتفتت إليه في فزع ثم قالت: لماذا تقول هذا؟

أدار عينيه عنها وهو يتمتم بكلمات لا تسمعها. كانت تعرف لماذا يقول هذا. ولم تكن تدري ماذا تفعل.. تعنفه؟ تهدده؟ ترشيه؟ تشرح نفسها له؟ تدافع عن نفسها؟

ولكنها قالت لنفسها في قوة: إذا كان في هذا البلد عليها أن تشرح نفسها للبواب كل يوم؛ لأنها امرأة فمن الأفضل أن تذهب إلى بلد آخر أكثر تحضرًا. ولم يخطر في بالها قط أن تعطي البواب عشرة جنيهات وتشرح له أن خالدًا طالب عندها. وعشرة جنيهات كفيلة بأن تفتح كل الأبواب المغلقة داخل عقله! وعشرة جنيهات كفيلة بجعله يفكر كحارس خاص لأميرة فرنسية! إذا كان هناك أميرة فرنسية!

وعشرة جنيهات كانت كفيلة بفتح قلبه وغسل نيته وشرح الموقف!

ولكنها لم تكن تنوي التضحية بعشرة جنيهات، ولم تكن تنوي أن تبدأ الآن بإعطاء الرشاوى!

وشعرت بأنها حرة طليقة للمرة الأولى، والحِمل قد زال عن ظهرها، والألم والخزي تلاشيا من نفسها.

وسوف تسافر إلى المؤتمر، وربما تقابل رامي في أمريكا، وربما لا. وفي كل الحالات هي ليست عذراء.

صورة شقتها لم تترك مخيلتها، وكانت تحب شقتها إلى أبعد الحدود.

ولم تتغير الشقة كثيرًا منذ وفاة أمها. أبقت كل شيء كما هو وحافظت على كل الأثاث وكل ما هو غال وثمين، ولم يكن عندها طفل ينهك قوى الشقة، ولا زائر يجلس على كنبة الصالون فيغير لونها مع الزمن. كان الصالون المذهب طراز الستينيات الذي اشترته أمها وقت زواجها كما هو، ودائمًا تغطية بغطاء أبيض، بسيط ونظيف. وكان الفيديو الذي اشترته منذ عشرة أعوام نظيفًا أيضًا ومغطى بمفرش كروشيه اشترته من

ألمانيا في أحد المؤتمرات منذ أعوام. وحتى ريموت الفيديو كان في أحسن حال وكيسته السيلوفان لا تزل تغطيه، وهكذا الحال مع التليفزيون الذي تغطيه بمفرش معيّن قبل النوم كل يوم. فتلوث القاهرة لا يُعلَى عليه، وهي تحب أشياءها جدًّا، هي كل ما تملك.

البهو الكبير في شقتها به القليل من الأثاث، ولكن على يسار البهو غرفة الطعام. وهي أجمل ما في البيت، هي كل فخرها، الطاولة القديمة من الخشب الأرو البني والبوفيه العالي العظيم برفوفه الزجاجية!

هذا البوفيه هو صاحب كل مقتنياتها وعمرها، وكانت تعشق التحف مثل والدها، وتشتري الكثير منها. إذا كان هناك شيء تستطيع أن تبذّر فيه فهو شراء الفازات والتماثيل الصغيرة وأطقم الشوك الفضية القديمة، وكل ثروتها كانت في هذا البوفيه الهائل، وكانت المقتنيات تطل من البوفيه في حذر وفخر وشوق وانتظار لمن يلقي عليها نظرة أو نظرتين.

وما كان يزعجها في بيتها أحيانًا هو الممر الضيق الطويل طول العمر، والمظلم معظم الوقت لأنها تقتصد في الكهرباء. وكان في نهاية الممر حجرة أمها وأبيها التي هي حجرتها الآن. وبجانب الحجرة حجرتان لا تفتحهما أبدًا. واحدة كانت لأخيها، والثانية لها ولأختها، ثم الحمام القديم الممتلئ بمعطر الجو وبكل أنواع الزيوت الصحية كاللافندر والكاموميل لتهدئة الأعصاب عندما تستحم.

هذا هو بيت الدكتورة هناء الذي اضطرت إلى أن تدفع لأخيها ولأختها حقهما في ميراثه حتى تستأثر به وتعيش الذكريات، وتتذكر أمها وأباها، وتسمع أصواتهما مع صوت الموسيقى في صباح كل يوم. وكانت تحب حياتها هكذا فقط . أحيانًا كانت هناك ليالٍ طويلة وسحاب كثيف يغمر جسدها البارد فيفيقه ولا يشبعه.. يخنق عنقها في الليل المظلم ولا يقتلها أبدًا. وكانت تخاف هذه الليالي، ويا ويل من يقابلها في الصباح، تنفجر فيه بكل طاقتها وبقدر طاقتها ولا تفقد طاقتها.

الآن شعرت برغبة في أن تمر ببولاق!

شعرت برغبة في أن ترى بولاق قبل السفر، للعلم فقط وليس أكثر. وكانت تمر على حي بولاق من حين إلى حين، ولكنها لم تنظر قط إلى الحي على أنه مهم في حياتها.

لم يلفت نظرها في الحي سوى الكمية الرهيبة من البشر التي تنهال على محلات الفول والفلافل صباحًا والتصاق البشر بعضهم ببعض. كل هؤلاء.. هذا الكم الضخم من البشر

الذي يتصرف برتابة ونظام! وفي صمت مزعج. وصياح مكبوت.

وما لفت انتباهها هو صوت الموسيقى الصاخبة الذي يخرج من كل المحلات ولكل محل أغنية مختلفة، وكانت الأغاني ممتزجة داخل بولاق كل الامتزاج. مدفوسة في بعضها كالبشر بالضبط!

أراحت رأسها على مقعد الطائرة وهواء التكييف المزعج يتجه مباشرة إلى عينها اليمنى! أغمضت عينيها وبدأت تسترجع صورًا من ماضيها.. منذ عشرين عامًا!

صورًا لفتاة تحب زميلًا لها في صمت. وكان رامي هادئًا مترددًا وخجولًا. أعجبها ضعفه وتردده!

تم تعيينهما معًا في القسم. اقتربت منه أكثر. كانا يتكلمان لساعات عن شكسبير وديكنز. وكان عاقلًا، وكان ناضجًا وكان يفكر في الكون ويتأمل العالم.

مرَّ عام وهو زميلها وهي تحبه في صمت، كان يتمنى أن يهاجر إلى أمريكا. كان يتمنى أن يذهب في بعثة. وجاءت البعثة لها هي.

وأرادت أن تعرف مشاعره تجاهها. دائمًا يتكلم عن أمه واحترامه لها، وماذا تريد أمه، وماذا تتوقع وأبدًا لا يتكلم عنها أو عنه.

جلست أمامه في المكتب.

أخذت تعبث بالأوراق في عصبية وتفرك أصابعها، وقالت في يأس: هل أجرؤ على أن أحلم؟

بلع ريقه. طأطأ رأسه وهمس في صوت مبحوح: لا.

وكانت قوية، وكانت تتخذ خطوة المبادرة، وكانت تشعر به، وكانت تريد أن تمد له يد المساعدة وكانت تعشق التحدي! والانتصار!

ومع أن إجابته خذلتها وربما كانت تتوقعها منذ البداية قالت في تحد: هل كنت واهمة؟ هل كل ما كنت أتصوره وهم! كنت غبية إلى هذا الحد..

قال في تأثر: هناء..أنت لست غبية.

قالت في عصبية: سأسافر بعد أسبوع.

قال وهو يثبت نظره إلى الأرض: أعرف. أنا.. لم أجرؤ على الحلم يا هناء، ولكنني..

سكت لحظات ثم قال: وما الفائدة؟ حتى إذا كنت أبادلك المشاعر فما الفائدة؟ أنت تعرفين، أليس كذلك؟

قالت في انتصار: تبادلني المشاعر!

ابتسم قائلًا في شيء من الضيق والخوف: أنت.. مشكلة في حد ذاتك.. أنت.. كالشاحنة الهائلة..لا أحد يستطيع السيطرة عليك، أتعرفين هذا؟

نظرت إليه في غضب: أنا شاحنة!

- لا تضغطي أكثر يا هناء. انسي. النسيان أجمل نعمة أعطاها لنا الله!

فتحت عينيها وكلماته لم تزل تدوي في أذنيها: انسي.. انسي.

ربما لن ترى رامي مرة أخرى أبدًا. لماذا ظنت أنها سترى رامي من جديد؟

ومن هو رامي الآن؟ هل هو نفس الشاب الذي أحبته منذ عشرين عامًا؟

تذكرت أيامها ووحدتها في أمريكا وجلدها وصبرها وعزيمتها وحلمها به يومًا بعد يوم.

قال: إنها لا تجرؤ على الحلم.. ولكنها كانت تجرؤ على كل شيء!

ليته يعرف الآن أنها تجرؤ على كل شيء.

عندما جاء دور رامي للبعثة لم يعد من أمريكا. استقر هناك وتزوج من مصرية، ولا أحد يعرف عنه أكثر من ذلك.

تنهدت في إرهاق. كان يومًا طويلًا أمس. وكان رامي من عائلة تشبه عائلتها، وكان من حي المهندسين، وكان يتكلم معها بوجل واحترام، ولم يكن من بولاق، ولم يكن يتحسس طريقه من بين بقايا بشر يسحقون كل يوم آلاف المرَّات.

هل سترى رامي؟

ولو قابلته فكيف ستخبره أنها لم تعد عذراء؟ كيف ستخبره؟!

ألن تكف عن التفكير فيه؟ ألم يخرج من حياتها منذ أعوام؟

لم تكن تحب الذهاب إلى أمريكا ولم تكن تتذكر سوى أيام الوحدة والعمل واليأس. كانت تبحث عنه في المؤتمر في كل الوجوه ولم تجده. أعطت محاضرة عن الأدب

النسائي في العصر الفيكتوري، ثم جلست في بهو الجامعة الكبيرة في كاليفورنيا تحتسي العصير الصحي الخالي من السكر وتفكر في حياتها.

ماذا ستفعل الآن بعد أن فقدت عذريتها؟

كانت تستمع إلى اللغة الإنجليزية من حولها وعيناها لا تريان سوى بلاطة واحدة في الأرض. كانت بلاطة بيضاء من الرخام. وبها بعض الحفر الصغيرة.. وماذا ستفعل مع خالد؟

لا شيء. كان أداة لتحقيق هدف وقد تحقق الهدف، والآن لا يوجد أي داعٍ لاستعمال الأداة.

هل أساءت الاختيار؟ لا. خالد طيب وبسيط وابن بلد ومتدين، ولن ينطق بكلمة، ولو نطق فستذبحه بيديها! عليه أن يعرف هذا. عليها أن توضح له هذا عندما تعود.

هناك حفرة صغيرة في هذه البلاطة.. هل كانت موجودة منذ زمن أم إنها جديدة؟

ستوضح له أنه لو نطق بكلمة فسوف...

وهذا الحذاء الذي ترتديه هذه الأمريكية حذاء ذو كعب عال جدًّا، كيف تمشي به؟! تمشي كالديناصورات بأرجل مفتوحة وكأنها لا تتقن المشي بعد.

لو نطق!

سمعت صوتًا تعرفه.. رفعت عينيها من الأرض وهي تتوقع أن تراه. رامي. ألم تأت إلى هنا من أجل رامي؟ هذه جامعة رامي. كان لابد أن ترى رامي.

ولكنها لم تر رامي.. كان رجلًا آخر لا تعرفه. رأت الزمن في ملامحه، وخافت على صورتها في عينيه!

جلس بجانبها. رجل في الأربعينات، شعره معظمه أبيض، ملامحه تغيرت، ونظرته تغيرت، وكان رجلًا آخر!

صوته لم يتغير.

لو نطق!

قالت في حماس: رامي!

ابتسم في شيء من التردد والضيق: هناء.. كيف حالك؟ لا لن أسألك.. بالطبع أنت

بخير. هل حصلت على رئاسة القسم أم لا؟

كانت تتوقع سؤالًا آخر.. لم يسأله! كم طفلًا عندك؟ ما اسم زوجك؟ هل ما زلت عذراء؟قالت وهي تنظر لأصابعه الغليظة التي لم تعد تعرفها، وللدبلة التي دفسها في أحد أصابعه ونسيها للأبد.

- لا.. لم أحصل على رئاسة القسم بعد.

- ولكنك تكتبين كثيرًا وتعملين كثيرًا كالعادة. قرأت بحثك الجديد.

تفحصت وجهه، ولم تكن تدري هل رأت في وجهه غيرة أم إعجابًا!

لم يسألها.. لماذا؟

تنهد وهو ينظر إليها وفي عينيه شيء من الرقة: كيف حالك يا هناء؟ عُمْرًا لم أرك؟ ماذا فعل الزمن بك؟

قالت في تحد: ماذا فعل الزمن بك؟

- الكثير.

صمت لثوانٍ ثم قال: هل جئت إلى هنا لتقابليني؟

فتحت فمها في فزع لتتكلم فقال مسرعًا: بالطبع جئت لتقابليني، كنت في إجازة أمس؛ لذا لم أحضر محاضرتك أنا آسف. كنت أعرف أنك ستأتين يومًا.. وعندما تأتين ستتحدينني وتنتصرين عليَّ.

قالت في فخر: أنا أنشر أكثر منك، هذا أكيد!

همس في دفء: وأنت أحلى مني أيضًا! كما كنت منذ عشرين عامًا. بالطبع لم تتزوجي.

- لماذا تقول هذا؟

- لأنني أعرف أنه لا يوجد رجل في العالم يستطيع السيطرة عليك يا هناء!

- ربما تزوجت من أجنبي!

- قلت رجل في العالم وليس في مصر. ياه يا هناء! عمر فات!

- سعيد بالبقاء في أمريكا؟

صمت دقائق: ما الفرق بين أمريكا ومصر؟

- الديمقراطية والحرية والعدالة!

ابتسم في تهكم: لا توجد عدالة ولا ديمقراطية في أي بلد في العالم. الأقوى يشرع القانون، والأضعف ينفذ القانون. ولكن متى ستتولين رئاسة القسم؟!

- لما ربنا ياخد سامي وأمثاله!

- سامي فتحي! هو رئيس القسم؟ حظك تعس جدًّا!

فتحت فمها.. كيف تخبره بأنها فقدت عذريتها؟ وهل تستطيع؟!

ما أحمقها!.. رتبت كل شيء لهذا اليوم، والآن لا تعرف كيف تخبره!

قالت من جديد: هل ستعود إلى مصر قريبًا؟

قال في تلقائية: لا.

- زوجتك تحب أمريكا؟

- تكره أمريكا ككرهها لأمي، ولكنها تحيا في أمريكا ومع أمي! مسكينة. بل أنا المسكين، فعليَّ تحمل أمريكا وزوجتي وأمي!

ابتسمت. على الأقل لا يبدو سعيدًا! على الأقل لم يحصل على كل شيء، وهي لم تحصل على أي شيء!

ساد الصمت للحظات. لحظات محرجة. ثم نظر إلى ساعته، وقامت هي قائلة: سوف أغادر غدًا.

قال في شيء من الخجل: مش قادر أعزمك في بيتنا، أصل مراتي مسافرة، وأنا كمان حسافر بكره.

ابتسمت في برود قائلة: مش مهم يا رامي. المرة الجاية!

قال في حماس: آه.. المرة الجاية.

ثم ابتسمت في مكر قائلة: على فكرة! إنت مش عارف كل حاجة عني زي ما انت فاكر!

نظر إليها لثوانٍ وهو لا يفهم ماذا تقصد، فابتسمت في انتصار من جديد: أشوفك مرة

ثانية قريب إن شاء الله.

هز رأسه بالإيجاب وهو يحاول فهم جملتها الأخيرة ولا يستطيع. وربما لن يفكر فيها كثيرًا!

كانت رحلة أمريكا قصيرة وهشة كالسحاب.

قالت: هل أجرؤ على الحلم؟

قال: لا!

ابتسمت في تهكم. كانت ساذجة وقوية، وكانت تشعر بعدم ارتياح لوجود الرجال ما عدا رامي. كانت تكره الصوت العالي والسيطرة والطغيان!

ومع أن والدها كان رجلًا هادئًا عاقلًا كثيرًا ما رأت قهر المرأة من حولها.

كثيرًا ما شعرت بذراعي الرجل تسيطران وتخنقان، وصوته يخيف ويتوعد. كانت ترى طغيانه من حولها. وكانت تكره الرجل الشرقي وعنفه وظلمه!

كانت أحيانًا تتصور نفسها على مقعد في غرفة مظلمة وحيدة..ثم ينحني رجل ليخيفها. يهددها.. يحبسها بين ذراعي المقعد، ويبدأ في مراسم التعذيب. لم يكن هذا ممكنًا، ولم تسمح به، ولكنها تخيلته، وكان الخيال كفيلًا بأن يجعلها ترفض كل من تقدم لها. لو كان صوته عاليًا، لو كان يضحك كثيرًا، لو لم يتكلم معها عن مستقبلها وأبحاثها.

وصورة في خيالها.. يرسمها خيالها، ثم يضع لها البرواز الذهبي، ويعلّقها داخل حائط عقلها. صورة لرجل ينحني، ويحبسها في مقعدها ليملي شروطه، ويهدد ويخيف ويرهب!

أخوها كان أخًا مزعجًا، وكانت أمها تفضله، وأبوها يفضلها هي، ولأنها أصغر إخوتها لم تعانِ كثيرًا من أخيها. أما أختها ليلى فكثيرًا ما أرهبها أخوها.. وكثيرًا ما كانت هي شاهدة على هذا الإرهاب النفسي والبدني!

كانت دكتورة هناء تقول دائمًا لطلابها: الرجل في بلدنا يحتاج إلى عملية تجميل لإزالة كل الزوائد والأفكار المتخلفة والتربية الخاطئة و..و..

ولم يكن أحد يؤيدها، لا طلابها الرجال ولا طالباتها البنات!

عادت إلى مصر. وعليها الآن مواجهة خالد من جديد.

لو نطق فستقطع رأسه بسكين مسنونة في حرفية وهدوء!

كانت رحلة موفقة، ومحاضرتها لاقت نجاحًا هائلًا كما توقعت، ووجدت رامي وقابلته، وهذا أفضل ما في الرحلة. الآن يمكنها أن تبدأ من جديد، وسوف تبدأ بمحاربة سامي والتغلب عليه! عادت إلى شقتها في ظلام الليل وهي مرهقة. فتحت الباب بالمفتاح.. ما إن دخلت حتى شعرت بالمياه تغرق كل شيء. المياه تتسرب من حنفية حوض الحمام. هذا ما كان ينقصها بالطبع!

بدأت تنادي على البواب ورجلاها بالكاد تحملانها.

جلست في الصالة لساعات في انتظار السباك.

وهي تنظر للدمار الشامل الذي يسيطر على شقتها.

قال البواب في تردد وهو يعرف رد الدكتورة: السباك عايز ثلاثمائة جنيه!

نظرت له في ازدراء: ليه؟ هو ركب حمام جديد؟ شايفني قاعده على بنك!

وكان يعرف الدكتورة هناء وحرصها على كل قرش. وكان البواب يرثي لحال السباك.

انتهى السباك من تغيير الحنفية في حوض الحمام.

فتنفست في ارتياح، ثم دخلت الحمام وكأنها مفتش لمدرسة ابتدائية. نظرت إلى الحنفية في فزع: هذه حنفية مختلفة.

نظر إليها الرجل وكأنها تتكلم هندي، ثم قال: طبعًا لقد قلت لك إنني سأغير الحنفية!

قالت في إصرار: هذه حنفية فضية بـ«زيء» ذهبي، وحنفيتي كانت فضية بـ«زيء» أبيض! هذه حنفية مختلفة!

قال في عدم صبر: لم أجد حنفية مثل حنفيتك تمامًا!

قالت في إصرار: وأنا أريد حنفية مثل حنفيتي تمامًا ولن أقبل هذه الحنفية!

قال السباك في ضيق: يا مدام! أنا عندي شغل تاني.. إديني حسابي وخليني أروّح!

قالت في إصرار: أريد حنفية مثل حنفيتي. لن أعطيك مليمًا واحدًا على هذه الحنفية.

صاح في ضيق: يا مثبت العقل والدين يا رب.. ما قلنا مفيش واحدة زي بتعتك!

نظرت إليه في غضب! ثم قالت: لن تأخذ مليمًا لو لم تغير هذه الحنفية، وأنا لست مدام، أنا دكتورة وإياك أن تتكلم معي هكذا.. هيا اخرج من بيتي.

تمتم الرجل ببعض الكلمات، ثم خرج وهو يقول: ربنا يعوض عليَّ!

أغلقت الباب وراءه في اشمئزاز، ثم فتحت كل النوافذ، وغسلت يديها، واستعدت للنوم. سوف تفكر في أمر الحنفية غدًا. وغدًا سوف تعود إلى الجامعة!

كانت تعرف أنه سيأتي. بالطبع سيأتي، ربما يعرض عليها الزواج لإحساسه بالذنب. ربما يحاول النجاح عن طريقها. ربما جاء يوبخها! كانت تعرف أن هذه الليلة لن تمر في حياتها كما كانت تريد. كحدث عابر وانتهى. لا بد أن هناك عواقب. ولم تندم. لم تندم قط.

ابتسمت له، وقالت وهي تراه في ضوء جديد بعد ما حدث:

- خالد..كيف حالك؟ كنت أعرف أنك ستأتي؟

نظر إليها وهو يدّعي الدهشة: هل كان الغرض من كل هذا أن آتي إليك إذن؟ لا تفقد الفتاة عذريتها كل يوم لمجرد أن ترى رجلًا.. أو على الأقل أتمنى ألا يكون هذا هو حال كل النساء.

- تتكلم عنّي وكأنني امرأة مصرية عادية وأنت تعرف أنني لست كذلك؟

رفع حاجبيه في دهشة وسخرية: لا، أنت لست مصرية؟ من أين أنت إذن؟

- خالد.. لن تفهم.

- نعم.. معك حق. لن أفهم.

- هل جئت لتعرض علي الزواج؟

قال في لامبالاة: ربما.. جئت لأفهم.. إذا كان هناك شيء يمكن أن أفهمه. دكتورة هناء، كل ما أعرفه عنك أن بيتك مسكون بالعفاريت، وأنك تخافين من الظلام. وأنت لا تعرفين عني سوى أن عمتي كانت ممسوسة! هل هناك أكثر من ذلك يمكن أن أعرفه عن امرأة أعطتني نفسها دون أن تقبلني حتى قبلة واحدة!

نظرت إليه في فزع: أرجوك لا تتكلم معي هكذا.

قال في سخرية ممزوجة بالجدية: أنا فقط أتساءل، وأعتذر بالطبع، كان يجب أن

أتصرف بطريقة تليق بك!

- كيف؟

- أمارس الحب معك كما كنت أتصور في أحلامي؟

- كنت تحلم بي؟

- ليس بك على وجه الخصوص ولكن بأول مرة تصبح لي امرأة.

- كانت أول مرة؟

- نعم، أعتقد هذا.. شبه أول مرة أمارس الحب حقًّا. أنا متدين كما تعرفين!

صمتت لثوانٍ ثم قالت: أنت متدين وشرقي ومصري وتحلم وتتوقع. بماذا تحلم وماذا تتوقع من المرأة؟

فاجأته بسؤالها. وبكلماتها الغريبة.. مصري.. شرقي.. متدين وكأنه ينتمي لعالم لا تعرفه!

قال في هدوء: ماذا أتوقع من المرأة؟ شرقي؟ أتوقع أن تطيعني نهارًا وأطيعها ليلًا. أن ترتدي الزينة والحرير، وتعبق البيت برائحة البخور، وتضع على المائدة خروفًا كل يوم. أن تعشقني وتنظر إليّ في خشوع وخوف، وتجلس في انتظاري، وأختار بينها وبين زوجاتي الأخريات وتموت فرحة لو اخترتها، وتبدأ فروض الطاعة والولاء. وتنتظر دورها كل أسبوع في ترقب وخوف ألا ترضيني وأن أغضب عليها وأستبدل بها أخرى...

- انتظر لحظة..تسخر مني أليس كذلك؟ لقد سألتك سؤالًا.. لماذا لا تستطيع الإجابة عنه؟ ماذا تتوقع من المرأة، امرأتك أنت؟

مَدَّدَ رأسه على المقعد، ثم قال: القليل.. أتوقع القليل. ما يتوقعه كل رجل.

- وماذا يتوقع كل رجل؟.. لا.. ماذا تتوقع أنت؟

- أريد امرأة تفهمني، وتؤيدني وتأخذ بأزري وتدعمني. أريدها ذكية ومتعلمة ومثقفة وهادئة ومطيعة وحنونًا. لا أريد من تتشاجر معي كل ساعة ولا من تتحداني كل يوم. فالرجل يا دكتورة في بلدنا كالجمل في الصحراء. يعاني العطش والجوع والحِمل الثقيل، وأهم من كل هذا يعاني عدم القدرة على الوقوف. عليه أن يسير ويسير حتى لو أنهكه

الطريق والحر. حتى لو أنهكته المهانة والذل. يحتاج عندما يعود إلى بيته أن يجد امرأة حنونًا تدفئه ولا تخنقه، ولا تسيطر عليه، ولا تتعالى عليه. أتفهمين يا دكتورة ما أقصده؟

- أنت طيب يا خالد، ولا تطلب الكثير على الإطلاق... فلنراجع كلماتك معًا علَّنا نستفيد منها.. تريدها مطيعة هادئة وحنونًا.. ربما عليك بشراء قطة..لا.. القطة ليست مطيعة! بقرة، تحتاج إلى شراء بقرة. البقرة مطيعة!

- يبدو أنكِ أُعجبتِ بوصفي الأول للمرأة التي أريدها! ولم تعجبي بوصفي الثاني. لا بأس. دكتورة هناء سؤال أخير قبل أن أذهب..لماذا؟ لماذا الآن؟ وهل تتوقعين مني شيئًا؟

قالت في صرامة: نعم بالطبع أتوقع منك ألَّا تتكلم عن هذا الموضوع، لا معي ولا مع غيري. أنا أثق بك يا خالد، ولكني لا أفهمك، ولا أحب نبرة السخرية التي تتكلم بها معي.

- عفوًا يا دكتورة، ولكنني أريد أن أتأكد من أنني فهمت قصدك..تريدينني أن أنسى أنني مارست الحب معك وكنت أول رجل في حياتك، وأنك أوقعت بي في الخطيئة، وأنك قلبتِ حياتي رأسًا على عقب.

- أنا من يجب أن تتذمَّر وليس أنت.

- ولم لا تتذمرين وتطلبين الزواج؟ لا يهم. فهمت يا دكتورة.

همست في صوت ثعباني: لو نطقتَ فسأقتلك، سأذبحك بيدي!

همس في تهكم وهو يقترب منها: وأنا أعرف أنك قادرة على ذلك. شكرًا على المقابلة. مع السلامة يا دكتورة.

الكل يسرق والكل يجامل ويتغاضى عن التجاوزات، ولكن هناك حرامي شيك وحرامي فظ! والفظاظة يكرهها كل المصريين. فكون الدكتور سامي يقبل بعض الهدايا والدعوات والخدمات شيء عادي!

وكون ابن الدكتور سامي قد حصل على الماجستير في الفلسفة بتقدير امتياز شيء عادي أيضًا.

وكون ابن الدكتور سامي قد نقل رسالة ماجستير قديمة من جامعة أخرى شيء عادي

أصلًا ومقبول!

أما كون ابن الدكتور سامي قد نقل رسالة ماجستير لشخص على قيد الحياة.. حي يرزق يعني، ويدرّس في جامعة إقليمية، فهذا بالطبع ينم عن قلة الذوق!

وكل شيء مباح سوى قلة الذوق!

أن تسرق بذوق مباح، ولكن أن تسرق عيني عينك بفظاظة فطبعًا غير مباح.

يبدو أن الدكتور سامي بدأت تختلط عليه الأمور، وبدأ ينسى أصول وقواعد مهنته! أصبح قليل الذوق وفظًّا وجريئًا، جريئًا جدًّا!

وبدأ العميد يضيق بفضائحه وأسلوبه الفظ مع من حوله ومع من يطلب مساعدته! ولم يكن دكتور سامي يتورع عن طلب السيارات المرسيدس لنجاح طالب في مادته، أو أداء خدمة أو إعطاء بعثة! وكان يطلب بجرأة ودون الشعور بالذنب وجس النبض والتأكد من النيات!

الهدية تعطى ولا نطلبها! لم يفهم هذا قط!

وبدأ العميد فعلًا يضيق به خاصة بعد شراء السيارة المرسيدس الجديدة! وفضيحة نجله صاحب الماجستير بامتياز.

وكانت الجامعة تحتاج إلى دماء جديدة ووجه مشرف، وامرأة. نعم تحتاج إلى امرأة، فوجود امرأة في رئاسة القسم هو أكبر دليل على أن مصر بلد متحضر ولا يفرق بين النساء والرجال في المراكز والصلاحيات.

وكان الاختيار ينحصر بين أستاذتين: الدكتورة مايسة والدكتورة هناء. ومايسة وهناء مختلفتان كل الاختلاف.

مايسة متزوجة وعندها ثلاثة أبناء وفي بداية الخمسينيات، وترتدي الحجاب، وزوجها أستاذ في كلية الطب، ومحبوبة من الطلبة. وهناء..متوحدة وصعبة، ومعروف عنها شعار العدل في الظلم أفضل شيء! عادلة وتكتب الكثير من الأبحاث، ولها اسم في الخارج.

ولم يقرر العميد بعد. كان عليه أن يقابل مايسة ويقابل هناء.

وجاءت مقابلته مع هناء، وكانت تركز عينيها الحادَّتين عليه بشكل لا يحبه، ولم يكن

يعرف هل سيستطيع التعامل معها أم لا. أما الدكتورة مايسة فكانت مبتسمة تتكلم عن أولادها طوال الوقت، وتبدو مثالًا مشرفًا لسيدة مصرية، ولو يومًا قررت أن تقبل رشوة أو تتجاهل خطأ أو تجامل قريبًا فسوف تفعل هذا بذوق عال، ورفق ودون فظاظة!

الاختيار يبدو مباشرًا وسهلًا، وهذه المؤسسة تحتاج إلى إعادة تقييم!

ولكن الدكتورة هناء.. مخلصة.. ولاؤها لن يكون لفرد. ولاؤها للمؤسسة!

للحكومة!

ومن في هذا الزمان يعطي ولاءه للحكومة؟ من يعط ولاءه في مصر للحكومة فهو خائن للوطن والأرض، ويستحق الرجم بالأحجار والخبز القديم والدقيق الأمريكي!

وهناء ولاؤها للمؤسسة!

لم يقابل قط أحدًا مثل الدكتورة هناء. لم تزل تدين بالولاء للجامعة، وليس لأبويها، ولا لأختها وأقاربها والجيران والإخوة في الإسلام والإخوة في المسيحية والإخوة في الوطن الواحد! ولاؤها للمؤسسة!

كان عليه أن يفكر من جديد في مايسة وهناء.

طلب من هناء أن تذهب إلى رحلة مع اتحاد الطلبة، ومع بعض المعيدين والأساتذة. وكان يريد أن يسمع تعليق الجميع. ومع أن هناء كانت تستشعر اهتمام العميد المفاجئ بها، وكرهه المفاجئ لسامي ولم تكن تعرف بالضبط ما يدور بخلده!

إذا طلب العميد منها أن تنضم إلى رحلة اتحاد الطلبة فعليها تلبية طلبه، وإذا تذكرها العميد أصلًا ليطلب منها شيئًا، أي شيء، فهذا يوم السعد والهنا. وتذكرت مَدْرَستها الخاصة، والمُدرِّسة التي كانت تحبها لأنها مجتهدة وهادئة، وكانت دائمًا تختصها بالمهام المشرفة كحمل الكراريس من صف إلى صف أو مسح السبورة، أو الذهاب لإحضار الطباشير. وخيّل إليها أن أيام المدرسة لا تنتهي، وأن المدرسة لم تزل موجودة.. تبدو مختلفة ولكنها موجودة، وتوكل إليها بالمهام المشرفة، وعليها أن تشعر بالامتنان لاختيارها هي.

شعرها الأسود مربوط ذيل حصان كالعادة. اليوم كانت ترتدي فستانًا مزركشًا وحذاء أسود بكعب عالٍ. كانت تبدو وكأنها خرجت للتو من إعلان عن صابونة في

الخمسينيات!

ولكنها اهتمت بمظهرها أكثر مما تفعل دائمًا، ووضعت القليل من الكحل والروج البمبي.

وكان هدفها أن تمر الرحلة بسلام، أن تقضي الوقت في القراءة كما تفعل عادة، وتنسى حرّ القاهرة، وتجلس تحت نخلة عالية تتأمل الكون في صمت ودون إزعاج. وكانت مشكلتها أنها تمل الناس سريعًا!

وعزبة سلمى المعيدة كانت أكبر من حي شبرا! وأقل سكانًا بالطبع.

وكانت سلمى تنظر حولها في فخر وتسأل كل الموجودين إذا كانوا يحتاجون إلى شيء.

تحاشت الدكتورة هناء النظر إلى خالد وتجاهلته، ووجدت شجرة فأخرجت الغطاء الذي جهزته من أمس الأول.. وضعته تحتها وجلست، وأخرجت من حقيبتها تُرمس المياه الساخنة وكوبًا مغسولًا ومجففًا بعناية، وبدأت تشرب المياه الساخنة كما تفعل كل يوم صباحًا بدون شاي وبدون قهوة. فقط مياه لتطهر معدتها، ولا تفطر عادة.

أخرجت كتاب الشعر الإليزابيثي الذي تحبه وبدأت تقرأ في تمعن.

حتى سمعت صوت المسجّل في أذنيها..

قدُّك المياس يا عمري.

أيقظ الإحساس في صدري.

أنت أحلى الناس في نظري.

جل من سواك يا عمري.

قالت في هدوء دون أن تنظر حولها: هذا التسجيل عال جدًّا.

سمعت همس الفتاة: أنا آسفة يا دكتورة.

نظرت بجانبها.. أمعنت النظر للفتاة.. عيناها.. رأتهما من قبل، كانت صغيرة لم تتعدَّ الثامنة عشرة وترتدي الحجاب الأزرق والملابس الملونة والكحل والروج والذهب. ابتسمت الفتاة واقتربت منها قائلة: أصل أنا بحب عبد الحليم قوي وخالد كمان. خصوصًا الأغنية دي. بيحبها قوي.

قالت في تلقائية وهي تتفحص الفتاة: أنتِ أخته؟

ضحكت في حماس: نعم.

لم تكن الفتاة تخشاها ولا تخجل منها، وبدا لها أن الفتاة لم تذهب إلى الجامعة بعد!

سمعت أصواتًا من حولها.. ثبتت نظرها على الحديقة الكبيرة وملعب الكرة الذي اخترعه الشباب في لحظات. وكان هو يلعب الكرة بحرفية وكأنه قضى طفولته يتمرن على الكرة في بولاق في الشارع الضيق. بالطبع هذه كانت طفولته! أما هي فقضت طفولتها تحاول أن تتعلم البيانو وتستمع مع والدها إلى الموسيقى الكلاسيكية، وتذهب إلى الخالات والعمّات، وتتصرف كبنت ناس ومتفوقة.

كانت عيناها تجريان معه وهو يصرخ في حماس ويتصرف في تلقائية. ثبتت عينيها عليه وعلى جسده الشاب. حاولت أن تراه كطالب مرارًا. ولم تستطع. ربما أبدًا لن تستطيع.

وكان ينبض بالحياة، وكان العرق يتصبب منه، عروق عنقه تصرخ معه وهو يطلب الكرة في تحدٍّ!

ابتسمت في تهكم من نفسها وهذه المشاعر المراهقة التي تشعر بها.

أدارت عينيها عنه، ثم بدأت في القراءة من جديد حتى همست الفتاة وهي تقترب منها: دكتورة هناء، مش كده!

قالت وعيناها لم تزالا على الكتاب: نعم.

قالت البنت في حماس وهي تجلس على غطاء الدكتورة هناء: أنا نفسي أدخل آداب إنجليزي، السنة دي أنا في ثانوية عامة وخالد قال إنه حيساعدني.

بدأت تشعر بالخطر الذي يقترب منها. وبالضيق والتهديد!

كيف تستطيع إبعاد الفتاة؟ في الحقيقة الكلمات لا تضايقها، ولكن..جلوس الفتاة بالقرب منها هكذا وعلى غطائها! ستضطر لغسل الغطاء أكثر من مرة! وهو غطاء صغير لا يكفي إلا لفرد واحد.

همست في هدوء: يا..

قالت الفتاة مسرعة: شيماء!

- يا شيماء، هل يمكنك أن..

قاطعتها شيماء وكأنها ستبوح بسر خطير: هل ترين هذه البنت التي تحت الشجرة وتتكلم مع محمد؟ هي صفاء التي كان خالد يحبُّها.

بدأ الموضوع يستهويها فجأة، فأمسكت بالغطاء من جانب ساق الفتاة، وبدأت تشده وهي تقول: ولماذا لم يتزوجها؟

قالت شيماء في حماس: ماما مش بتحبها! وهي مش بتحبنا كمان.كانت عايزه تاخده مننا خالص، وطماعة، وفيها حاجة غلط.. يعني مش بتحبه. بتمثل بس!

بدأت تشد الغطاء من جديد في قوة دون جدوى!

- في حاجة يا دكتورة؟

- كان في حاجة في الغطا.. ممكن تقومي شوية!

قامت شيماء فنزعت هناء الغطاء من تحتها في ارتياح وقالت: هذا أفضل.

نظرت إليها شيماء في دهشة. لم تحاول شرح نفسها. جلست وقالت فجأة والحديث يستهويها إلى أبعد الحدود: وهو تركها لأنك أنت وأمك لا تحبانها؟

- نعم بالطبع، ولأسباب أخرى. خالد الراجل بتاعنا دلوقتي وعليه مسئولية!

- يضربك؟

- نعم؟

- هل يضربك أخوك؟

قالت في لامبالاة: أحيانًا.. بس مش زي سميحة صحبتي، أخوها بيضربها عمال على بطال!

لم يبد عليها أي إحراج، وكأن الضرب حق مكتسب للأخ.

بدا على هناء الضيق، ثم قالت: لماذا يضربك؟

استشعرت عدم ارتياح شيماء المفاجئ لهذا الحديث، وقد تذكرت شيماء في لحظات المشاجرة الكبيرة مع أخيها منذ خمسة أشهر عندما تأخرت عند صديقتها حتى الساعة الثانية عشرة مساءً. وهذا اليوم..كان لصديقتها أخ كالقمر، وكانت شيماء تعشق الكلام..

فقط الكلام مع القمر في السماء، والقمر في الأرض، واندمجت بعض الشيء في الكلام ونَسِيَت الوقت. عندما عادت كان خالد في أسوأ حالة رأته فيها منذ موت أبيه! وكانت تخافه وتتحداه. وعندما سألها عن سبب التأخير ردت بكل بجاحة: وانت أبويا انت! أنا أبويا مات! انت بس أخويا! مش علشان بتصرف عليَّ حتتحكم فيَّ!

وسمعت أمها الحديث، وفتحت فمها في فزع، وكأن ابنتها قد أعلنت للتو أنها حامل في ثلاثة أشهر من رجل مجهول! وشيماء بنت مؤدبة، وأبدًا لن تكون حاملًا في ثلاثة أشهر! كل ما فعلته هو الكلام وبعض اللمسات الخاطفة. وهذا بالطبع لا يمكن المحاسبة عليه كل هذا الحساب. وهل توجد بنت في مصر لم تفعل هذا؟. ربما.. صديقتها أخت الولد القمر لم تفعل هذا بعد! ولكن لكل شيء أوان!

هوت يد أخيها على وجهها هذا اليوم وكان قاسيًا! وكان كالأسد الذي يعلم حدود منطقته! وعَلِمَها بالطبع. ومنذ ذلك اليوم وهي لا تتأخر. وما أثار أعصابها حقًّا هو أن أمها ابتسمت في ارتياح عندما أعلن أخوها سيطرته عليها تمامًا! وأنها تحت رعايته هو، وأنه هو والدها الآن وأن عليها أن تهتم بمذاكرتها فقط! وعليها أن تفكر أحيانًا في أمها وأخيها وكل من يعمل ليلًا ونهارًا من أجل أن تتعلم هي وتدخل الجامعة! لا من أجل أن تتكلم مع القمر، وتلمس القمر، وتستمتع استمتاعًا قليلًا بمتع الحياة المتاحة!

لا بأس، مع ذلك فأخوها طيب، ولا يحكم الخناق عليها، وفي أغلب الأحيان يعمل خارج البيت ويشتري لها كل ما تريد، ويسأل عنها كل يوم، ويدفع بها إلى النجاح، وتكره أحيانًا دفعه لها المتحدي وأحلامه بمستقبلها الباهر، ودخولها الجامعة والتخرج والعمل و.. و..

ومع ذلك فهذه الدكتورة غبية غباء لا يوصف! أهذا سؤال تسأله؟

وهل يوجد أخ في مصر لم يضرب أخته ولو مرة؟! بلاش في مصر، في بولاق؟ في المدرسة؟ في الشارع بتاعهم! صحيح.. المتعلمين دول ساعات يقولوا كلام غريب!

هذا كل ما لاح بخاطرها ولكنها لم تنطق.

كانت عينا هناء تتفحَّصانها، وكأنها تستشف أفكارها ثم قالت:

احكي لي عن صفاء..

قالت في حماس: عارفة يا دكتورة، مرة كنت تعبانة قوي، مش قادرة آخد نفسي..

ماما عملت لي ميه بسكر وحلاوة دقيق، وصفاء كانت بتزورنا في البيت.. عاملة نفسها بتحبنا.. أول ما شافتني حيغمى عليّ، مسكت إيدي وقالت كلام حلو وكله كذب. لما مسكت إيدي حسيت إنها مش حنينة، إنها بتمثل بس! صعب عليَّ أخويا يتجوز ممثلة، وقلت له على طول!

تركت هناء الكتاب والحديث بدأ يستهويها إلى أبعد حد، خاصة مسك الإيد والحنان والمشاعر!

ثم أعادت نظرها إلى ملعب الكرة، ونظرت إلى خالد مرة أخرى وصديقه محمد يقترب منه في حذر ويهم بالوقوع، فيمسك خالد بذراعه في تلقائية، ويشرح له ماذا جرى في المباراة حتى الآن، وكأنه قد درّب نفسه على أن يكون عيني صاحبه! وأن يسنده ويدعمه!

ولم يكن من الصعب عليها أن تستشف أن خالد يحب دور المنقذ والرجل المسئول!

أمسكت بكتابها من جديد، وبدأت تقرأ، وضاقت شيماء بالجلوس على الأرض فقالت وهي تقوم: عايزه حاجة يا دكتورة.. أجيب لك سندوتش؟!

- لا، شكرًا.

- ماما عاملة سندوتشات كبدة، وكمان بسكوت بالعجوة، عايزة بسكوت طيب؟

قالت في ضيق: شكرًا.

وكانت تكره فكرة الكبدة بالثوم والزيت والبسكوت المليء بالزبدة والسكر والتراب والقاذورات..

نظرت إلى صفاء.. تفحصتها.. كانت سمراء بحجاب أحمر وملابس ضيقة، وكانت شابة لم تتعد العشرين. ملامحها مصرية، وشفتاها غليظتان، وقد استغلتهما لصالحها، فوضعت عليهما الكثير من أحمر الشفاه.

لماذا جاءت إلى الرحلة؟ ربما تتمنى العودة إلى خالد.. ربما محمد دعاها.. ربما جاءت لتغيظه وتوضح له عدم اهتمامها به!

التقت عيناها بعيني صفاء، فابتسمت، وقامت ومعها الغطاء، واتجهت إلى صفاء، وجلست بجانبها، وقالت وهي تمد كفها لها: أنا دكتورة هناء.

قالت صفاء في شيء من الدهشة وشيء من الإعجاب: أهلًا يا دكتورة.

- أنا مع خالد في نفس القسم، وأنت؟

بلعت ريقها في تردد وقالت: لم يعد بيننا شيء.

سألت هناء في حماس: لماذا؟

- البركة في أمه وأخته! مش عايزينه يتجوز أبدًا!

وكانت لهجتها وطريقتها تشبه طريقة شيماء، وكأن بهما لمسة بلدي غريبة لا تعرفها ولم تجدها في خالد. كان حرف التاء يأخذ حقه في النطق أكثر من اللازم، وكانت الأيدي والشفاه تلعب دورًا أكبر من دور اللسان في الكلام!

أسلوب غريب لم تعرفه من قبل.

قالت صفاء في شيء من الألم: أنا أعرف أنه يحبني!

فتحت هناء عينيها ورفعت حاجبيها: يحبك؟ كيف عرفت؟

- أنا أعرف، ولكنه عِنَدي ومغرور وتحت تأثير أمه وأخته..

ثم همست في أذنيها: عاملين له عمل!

هزت رأسها بالإيجاب: بالطبع!

قالت في حماس من جديد: ولكنه طيّب ويحبني.

قالت هناء في لهجة أمر: وأنت تحبينه؟

- نعم.. طوال عمري وأنا أحبه!

- كم عمرك؟

- عشرون عامًا.

صمتت هناء لثوانٍ، ثم قالت في جديَّة: صفاء، استمعي إليَّ.. خالد هذا لا ينفعك أبدًا. إذا كان سيعيش تحت تأثير أمه وأخته طوال عمره فسوف تتحول حياتك إلى جحيم. إياك! إياك أن تعودي إليه.. لو أرادك فسيعود هو إليك، أما إذا عدت إليه أنت فسوف يستغلك ويذلك، ثم يلقي بك في سلة المهملات. هل تفهمين؟

هزت رأسها بالإيجاب: ماما بتقول كده برضه. وكمان مش عايزني أعارضه! لو

قلت مرة: لأ، يزعل ويخاصمني، ويقول: أنا الراجل، والكلام ده!

قالت هناء في حماس: إياك أن تعودي إليه، سيعذبك.. اسمعي يا صفاء أنا دايمًا في الجامعة، ولو عايزة أي حاجة تعالي، وكمان حجيب لك عريس أحسن منه!

نظرت إليه من جديد لثوانٍ والثورة عليه والشهوة له تشتعلان بداخلها.!

كان يراوغ الكرة، يقترب منها، يحيطها، يخنقها، ثم يدفع بها إلى أعلى.

ثم يبتعد، يشتاق، يغازل، يقترب من جديد.. فيدفع بها غيره..يصرخ.. ينبثق العرق الثائر من عنقه ويكاد يخرج وينفجر وينتشر في كل مكان.

يقترب من جديد ويحارب. ويحيطها هذه المرة كالثعلب.. في ترقّب وتوتر وثقة. وغزارة..

نعم غزارة.

ثم قامت قبل أن تفقد أعصابها!

الرجال! ما أبشع الرجال وتحكّمهم وسلطتهم و..

آه كم تشفق على صفاء!.. عليها أن تتأكد من أن صفاء بخير، وأن صفاء لن تتزوج خالدًا.. أبدًا..أبدًا.

كان العميد يحب الديمقراطية التى يتمتع بها الجميع، ويعشق الكلام مع الأساتذة على انفراد، وتبادل الآراء والمناقشة الحرة. وعندما تتعدى المناقشة حدود المعقول كان بالطبع يحتاج إلى التدخل الفوري، وتحويل الأستاذ إلى التحقيق، وإضافة هدية صغيرة في ملفه أنه مشاغب، ويسأل الكثير من الأسئلة ويطلب الكثير من الطلبات، ولابد من توخي الحذر في الترقية وما يشبه ذلك. ولكنه كان يستمع في صبر، وكأنه يستمع إلى مسلسل تليفزيوني، ثم ينفذ ما يريد وعادةً يحاول تنفيذ عكس ما يريده الآخَرون، ففي النظم الديمقراطية الحديثة تنفيذ ما يريده الآخَرون هو أول خطوة تؤدي إلى الانهيار! وكلنا نعرف ونشهد كل يوم مجتمعات ديمقراطية تنهار، وبلادًا تنقسم باسم سيادة الديمقراطية!

ولماذا نثق بعامة البشر ونحن نعرف أن الإنسان خطَّاء ونَسَّاء.. إلخ!

كان يستمع إلى رأي الأساتذة في الدكتورة هناء والدكتورة مايسة! وأجمع كل

الأساتذة على أن الدكتورة مايسة سهلة التعامل، وأم وأخت، وحاجة، وست وقورة، وربنا بيحبها، وأن هناء محترمة وصعبة في التعامل، وتطلب الكثير، وغريبة الأطوار، وعانس، ومعقدة وحتطلع عين القسم!

ومن أجل الديمقراطية، ومن أجل حب الشعب وحكم الشعب للشعب! قرَّر العميد تعيين الدكتورة هناء رئيسًا للقسم!

- 3 -

ما إن سمعت هناء خبر انتصارها المهم وانقلاب الأوضاع وسيادة القانون حتى لاح بخاطرها شخصان فقط. عبد الحميد سكرتير الدكتور سامي وخالد!

وكان عبد الحميد كما يقول المَثَل العربيّ: "أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام!". وكان مصيره في يد هناء مظلمًا إلى أبعد الحدود. ولم يكن عليها سوى التفكير لثوانٍ لتفتته وتلقي به للفئران لتأكله على العشاء.

والشعور بالقوة أثملها وأصابها بنشوة لم تعرفها يومًا! وأصبح الماضي والحاضر لا شيء، وأصبح رامي قزمًا ضئيلًا وتافهًا؛ لا يلعب دورًا في كتابة التاريخ!

عبد الحميد..

كثيرًا ما أوقفها لساعات في انتظار مقابلة صاحب السمو الدكتور سامي! وكثيرًا ما ردَّ عليها ببجاحة واضحة! وكأنها نملة صغيرة وليست أستاذة كبيرة وكثيرًا وكثيرًا!

وهو الآن سكرتيرها، وعليها أن تلعب به كما تلعب القطة بالفأر الصغير قبل أن تأكله.. أو ربما عليها أن تفرمه وتحوله إلى جبنة رومي قديمة ثم تتركه للفئران تأكله! آه ما أجمل مصر!

العدالة.. مفتاح السعادة.

جاءت أخيرًا العدالة. كانت تظن مصر تتسرب من بين يديها كعمرها، والآن عمرها ومصر بين يديها وسوف تحافظ على مصر وعلى عمرها!

بدأت تبحث في أوراق تعيين عبد الحميد في السبعينيات فاكتشفت أن مؤهله دبلوم تجارة فقط، لذا قررت نقله إلى مكتب الأرشيف لعدة شهور، ثم البت في أمره.. ما إذا كان سيبقى في الأرشيف أم أن مؤهله يحتاج إلى عمل أكثر مجهودًا كفراش مثلًا أو حامل أوراق أو..أو..

أحلامها وأمنياتها تنمو يومًا بعد يوم!

أما خالد.. خالد.

فالخوف منه هو!

خالد.. يعرف الكثير. قطع رقبته بالطبع حلٌّ مثالي، وبما أن القانون في مصر للأسف لم يزل يعاقب على القتل العمد حتى ولو كان للضرورة، فعليها التفكير في وسيلة أخرى للتعامل معه!

يجب أن يبقى تحت إشرافها ومراقبتها طوال الوقت. وهذا سهل الآن. فقد سجّل الدكتوراه مع الدكتور محمد عبد الله. والدكتور محمد لن يمانع في أن يعطيها طالبه لو طلبت هذا!

وعندما يصبح خالد طالب الدكتوراه طالبها هي، وهي أيضًا رئيسة القسم فسوف يكبل بقيود من الصعب التملص منها.

وعندما يكبل خالد فلن ينطق. وعندما يكبل خالد ستفكر في هدوء في المستقبل.. فربما تحتاج إليه من جديد.. من يدري؟!

قالت لرامي: هل أجرؤ على أن أحلم؟

قال: لا!

أين أنت يا رامي لتراها تتخطى كل الأحلام وكل الطموحات، وتحصل على كل ما تريده دفعة واحدة؟!

يوم الانتصار العظيم، هذا يوم يجب أن يكتبه التاريخ، فهي تنوي أن تغير التاريخ!

تنهدت في نشوة لم تشعر بها يومًا قط، وجلست على المكتب الكبير، وتنفست في فخر وابتهاج. نظرت إلى ساعتها.. بعد دقائق سيبدأ الاجتماع الذي سترأسه هي! ولم يكن هناك شيء تريده في هذا العالم سوى هذه اللحظة.. لا.. كان هناك شيء آخر.. أن تفقد عذريتها، وتحققت هذه الأمنية أيضًا. والآن.. سوف يدخل الجميع مكتبها كالماشية التي تتبع الراعي في استسلام. هناك عدالة إذن في هذه البلد، هنالك عدالة وفرصة للتفوق.

دخل الأساتذة في احترام الواحد تلو الآخر.. الكل يهنئها ويمدحها.

تغيرت نغمة صوتها بعض الشيء.. ارتفعت ربما.. ازدادت قوة..أصبحت تأمر ولا تنتظر الرد.

دخل المعيدون أيضًا.. رأته كان يجلس في الخلف يسند صديقه محمدًا كالعادة. يجلس

بجانبه، يناوله الماء.. ينشغل به. غريب خالد هذا. لا بأس ستتعرف عليه أكثر قريبًا.

قالت في قوة: أريد أن أتكلم معكم عن عدة مواضيع.. أولًا أريد أن أقول إنني سعيدة بالفرصة التي أتاحها لي العميد، وأرجو من اليوم أن يكون ولاؤنا الأول والأخير للمؤسسة، نعم ولاؤنا جميعًا للجامعة أولًا. وأنا هنا لأخدم أهداف الجامعة و..

كانت تنظر إليه.. كان يكتب شيئًا.. خالد.. ماذا يكتب.. كلماتها..

شعرت بفخر شديد.. التقت عيناها بعيني الدكتور سامي.. ابتسمت في فخر وأكملت: هناك بعض القواعد التي ربما نسيناها كلنا، نحن هنا كرعاة للعلم، والعلم هو أول هدف لنا، لذا سوف أتخذ بعض الإجراءات التي قد تبدو صارمة، ولكنها في الحقيقة تخدم أولًا المؤسسة..

وضعت نظارتها وبدأت تقرأ؛ بالنسبة للأساتذة.. لن أسمح بإعارة أي من الأساتذة في الوقت الحالي، والسبب في ذلك هو أن المعارين دائمًا يهملون أبحاثهم كما نعرف، ويعملون فقط كمدرسين، وعندما يهمل العالم بحثه يموت، ويصبح مثله مثل المدرس الإلزامي.

نظر الأساتذة بعضهم إلى بعض في ذهول فقالت: هل يوجد أي اعتراض؟

نظرت حولها. لم ينطق أحد. لم يجرؤ أحد على الاعتراض، ولم يعتد أحد على الاعتراض، ولم يكن سؤالها سوى سؤال أجوف بلا معنى.

أكملت في ثقة: لذا فالبحث العلمي سيكون أول المهام التي يجب أن يقوم بها الأستاذ، وسوف يحدد مرتبه على هذا الأساس وسوف تقاس كفاءته على هذا الأساس.. أما بالنسبة للمعيدين والأساتذة المساعدين فأنا أقولها الآن.. لن أسمح بالدروس الخصوصية.. ولو عرفت أن أحدهم يعطيها فسوف يكون عرضة للتحقيق والعقاب. أما بالنسبة للبعثات فسيحصل عليها من يستحقها، وليس من أعطاه المجتمع فرصة أفضل في الحياة. فلنحاول معًا أن نسمو بمستوى جامعتنا وبلدنا.

بدأ التصفيق المستمر. ابتسمت في نشوة. قام دكتور سامي وقال في قوة: أنا سأذهب إعارة يا دكتورة.

وكان تحديًا لم تتوقعه، وقالت وهي تستجمع كل قوتها: لا يا دكتور، لن أوافق على الإعارة.. مصر محتجالك.

بدأت نبرة صوته تعلو: سأذهب يا دكتورة، وسآتي بالموافقة حتى لو من عند الوزير!

بدأ الهمس يسيطر على الغرفة. قالت من جديد وصوتها يعلو: ما دمت أنا على هذا المقعد فلن تذهب. انتهى الاجتماع اليوم شكرًا يا أساتذة..

بدأ الجميع في الخروج. نظرت إلى خالد وهو يفتح الباب لصديقه، وقالت في قوتها التي تعشقها: خالد ومحمد أريد أن أتكلم معكما.

نظر إليها. أطال نظره إليها وكلما نظر إليها كانت تتذكر مشاهد تخجل من ذكرها. مدت يدها لتصافح محمد قائلة: كيف حالك وحال الماجستير؟

صافحها.. تركت يدها بين يده. كان يتحسس يدها، وكأنه يود أن يعرفها أكثر، ثم قال: حظنا جميل أنك رئيسة القسم يا دكتورة.

ابتسمت. نظر خالد إلى ساعته وإلى يد محمد، وقال في ضيق: يجب أن نذهب الآن.

ترك محمد يدها، وقال: نعم يجب أن نذهب.

قالت في تحدٍّ: أريدك يا خالد.

بدأ يساعد صديقه على ترك الغرفة، ثم دخل من جديد. نظر إليها، التقت أعينهما، قال في هدوء: هل يمكنني أن أجلس؟

قالت في فخر وهي تجلس من جديد على مكتبها الفخم: بالطبع يمكنك أن تجلس، ألم أقل لك: إنني أريدك.

ابتسم قائلًا: نعم هذا ما قُلْتِهِ، ولا أعرف ماذا يعني هذا على وجه التحديد. عفوًا يا دكتورة ولكنني أحيانًا لا أفهمك.

- ماذا كنت تكتب؟

- كلماتك بالطبع. نحن نتعلم منك يا دكتورة.

قالت في زهو: كيف حالك؟

أدار وجهه عنها: بخير.. خاصةً الآن مع قدوم النظام العالمي الجديد.

- ماذا تقصد؟ تسخر مني؟

- وهل أجرؤ؟

- لا.. لا تجرؤ. خاصةً الآن. هل تعرف لماذا؟

همس في هدوء: لأنك الآن المشرفة على رسالتي، ولو غضبت علي فسوف تنطبق عليَّ السموات السبع، وربما أجد نفسي كعمتي التي مسها الجن.. شريدًا بلا مأوى ولا هدف.

قالت في ضيق: تسخر مني إذن!

- فقط لا أفهمك، ماذا تريدين مني يا دكتورة؟ تريدينني كيف؟

فتحت فمها، فقال هو في هدوء: أعرف ماذا تريدين.. أن تتأكدي من ولائي. قائد عظيم أنت يا دكتورة. لذا كنت أحاول أن أتعلم منك، فربما يومًا ليس بقريب تئول لي القيادة.

- تنظر إلى منصبي! هذا ما كنت أخافه يا خالد. أنت طموح وذكي، و.. يجب أن تبقى بجانبي تساعدني على تأسيس نظام جديد سمته الضمير والعدل.

نظر إليها، صمت برهة، ثم قال: أتسمحين لي بالتكلُّم أم ستقطعين رأسي؟

- تكلَّم.

- يجب عليك فهم النظام القديم أولًا قبل تأسيس نظام جديد، لا يمكن لأي قائد في مصر أن يستهين بالنظام القديم.

- وما هو النظام القديم؟

- بالضبط!

- عفوًا؟

- هذا السؤال يلخص النظام.. لا أحد يعرف. لا يوجد نظام.

- لا أفهمك.

- نعم بالضبط، كلنا اعتدنا ألَّا نفهم، أما إذا فهمنا فهذه هي بداية النهاية.

- الجهل خيبة!

- ونعمة!

- ماذا تقصد؟

- هل عيَّنتِ أحدًا في وظيفة سكرتيرك الخاص؟

- سأفعل اليوم أو غدًا، عندي ثلاثة طلبات، وأعرف من أريد.

- هل يمكنني أن أسأل عن طلبين منهم؟

- هل تعرف الطلب الثالث؟

- نعم.. هو من هند جارتنا. بنت ممتازة ومتدينة، تساعد أهلها على المعيشة، وتحتاج إلى هذه الوظيفة أكثر من أي إنسان. دكتورة أرجو أن تنظري إلى طلبها بعين الرحمة.

فتحت الملف. نظرت إلى طلب هند، ثم قالت: إجادتها للكمبيوتر واللغة الإنجليزية ضعيفة.

- ستتعلم بسرعة.

نظرت إليه.. تفحصته، ثم قالت: من هي بالنسبة لك؟

- أحترمها وأقدِّرها وتحتاج إلى العمل.

- عندي طلب آخر من ابنة أحد الأساتذة، تود أن تأخذ هذه الشغلة من أجل أن تملأ وقت الفراغ في حياتها عندما يكون أولادها في المدرسة. هو أستاذ مشهور في قسم الفلسفة، ولو دعمت علاقتي به فسوف ينفعني يومًا.

- ولكنك لن تعطيها الوظيفة.

قالت في دهشة: وكيف عرفت؟

- لأن ولاءك للمؤسسة. عندي كلماتك هنا في كتابي.

- أما الثالثة فهي ليست فقيرة. والدها موظف، ووالدتها مهندسة، وتجيد اللغة الإنجليزية والكمبيوتر، وذكية ومتحضرة.

قال في حيرة: ولكنها لا تحتاج إلى الوظيفة. هند تحتاج إليها أكثر. لو لم تجد عملًا فماذا ستفعل؟ لا يمكنك أن تتخلي عن إنسان لجأ إليك.

- خالد.. لقد قلت للتو إن ولائي للمؤسسة وليس لأفراد. الجامعة هي مليكي وليس البشر، وما دامت الجامعة هي أولويتي فسوف أعيّن من هو أكثر كفاءة وليس من هو أكثر فقرًا واحتياجًا.

نظر إليها لثوانٍ، ثم قال في وجل وكأنها أعلنت للتو الخيانة العظمى: ولاؤك للحكومة إذن؟

- أنا هنا من أجل الحكومة!

- نعم.. هذه هي المشكلة.. دكتورة هناء.. في مصر ولاء الأفراد ليس للحكومة، بل لبعضهم البعض. لا أحد يعرف الحكومة، ولا أحد يثق بها. نحن هنا نحيا ونعمل في ظروف زي الزفت؛ لأن ولاء بعضنا لبعض. الحكومة لن تشعر بالامتنان. لن تنقذي مصر بتعيين فرد، ولكن هند ستشعر بالامتنان.

- نعم هذه هي مشكلة مصر، الولاء. في الخارج الولاء للمؤسسة، وليس لأفراد، لا مشاعر ولا محسوبية. سأبدأ بنفسي إذن.

قام في ضيق: حسنًا، هل تريدين مني أي شيء؟

نظرت إليه ثم قالت: لا دروس خصوصية! أنت تعرف هذا الآن.

قال في تلقائية: بالطبع كلامك أوامر. والديمقراطية! ما وظيفتها في هذه المؤسسة الحكومية؟

- في إطارها الصحيح مجدية، أما إذا استغلها الجهلاء فهي سلاح يقتل صاحبه.

- نعم معك حق.

ابتسمت في تهكم قائلة: بالطبع يمكنك الزواج من هند حتى تصونها، وسوف تصبح نعم الزوجة، وسوف تسهر على راحتك.

قال في هدوء: نعم هذا ممكن. ولكن ولائي يجب أن يكون للمؤسسة وأصحاب المؤسسة، وليس لبنت فقيرة، وإلا.. ربما لا أحصل على الدكتوراه أبدًا!

- ماذا تقصد؟

- عادةً لا أقصد أي شيء.. وأحيانًا أقصد شيئًا وربما شيئين.

- ولا تتكلم في جِدٍّ أبدًا. أنا لا أفهمك.

- طبعًا بوصفك المشرفة على الدكتوراه يجب أن تفهميني. في المستقبل ربما. مبروك يا دكتورة.

عندما خرج خالد من الحجرة كان يشعر بحنق شديد على كل شيء. وكانت هذه الطاقة الهائلة التي تجاهلها لسنوات، قد ازدادت مع الغضب الذي ينمو كل يوم تجاه هذه المرأة التي أعطته يومًا هدية لم يطلبها، ثم تجاهلته، وكأنها لا تأبه به على الإطلاق.

بالطبع هو لا يحبها ولا يريدها، ولكن كرامته جرحت جرحًا كبيرًا. كان يتوقع من امرأة فقدت عذريتها أن تتوسل إليه أن يتزوجها.. أن تشعر بالخزي من الفاحشة التي ارتكبتها، لا أن تحيا وكأنها ضحت بطبق قديم وأعطته هبة للفقراء.

ولكنه لن يفكر فيها، وربما أنقذه الله من موقف كان سيضيع مستقبله. والآن سيتزوج صفاء، أو غيرها، ويحيا هو أيضًا، وكأنه لم ير الطبق القديم ولم يأكل منه يومًا.

أنقذته بتجاهلها له، فلو طلبت منه الزواج الآن لأصبح مضطرًا للزواج منها ثم تطليقها في نفس اليوم.

بالطبع أنقذته.. يحتاج إلى أن يصوم ويستغفر، ويجري من الجامعة إلى بولاق، ثم يستحم بماء مثلج وينام.

نظر حوله لأول مرة في حياته، ورأى الأنوار والمحلات والناس.. الناس في كل مكان لا يفصلهم أي شيء. لا حدود لوجودهم ولا لماهيتهم.

تسلق السلم القديم شبه المهدوم إلى بيته. دق الجرس، وكان يعرف أن أمه سوف تفتح وفي عينيها سعادة لا توصف؛ فهي هكذا دائمًا عندما تراه أو ترى أخاه. أما أخته فلا تحظى بنفس التقدير ولا تقوم بنفس العمل. هي تذاكر وتطلب وتتكلم في التليفون، أما هو وأخوه فيعملان ليلَ نهارَ، وهو القائم بكل المهام المادية منذ وفاة الأب. منذ أربع سنوات وهو يعول البيت، ويساعد أخاه في مصاريف الزواج، ويقتصد من ماله الخاص من أجل أخته، ويدفع أقساط شقته في الهرم.. والكثير.. يدفع الكثير لغيره والقليل لنفسه، ويحظى بتقدير لا يوصف من كل من حوله. وبالطبع مرتب الجامعة لا يكفي لشراء اللحم لمدة أسبوع.

لذا ففكرة إلغاء الدروس الخصوصية تبدو مجنونة وساذجة، ولكن هكذا تبدو الدكتورة هناء بالنسبة إليه مجنونة وساذجة!

ما إن دخل حتى فتحت أمه الثلاجة، وأخرجت الطبق المغطى الممتلئ باللحم الذي تحتفظ به لخالد وبدأت في إعداد الغداء.

كان يجلس صامتًا شاردًا كعادته هذه الأيام.

قالت أمه في قلق: البنت صفاء باين عايزة ترجع لك يا بني. إمبارح اتصلت بشيماء وجَرّتْ ناعم معايا.. بس إوعى ترجع لها لما تعرف إزاي تسمع كلامك وتطيعك الأول!

أمسك بالملعقة وقال: نعم بالطبع.

- يعني متستعجلش على الجواز، الستات على قفا من يشيل.

كان يلهو بالطعام في صمت، فأكملت هي: عملت لك بقلاوة من اللي بتحبها علشان تعرف محدش بيعمل حلويات زي أمك. البنت صفاء دي حتى متعرفش تطبخ. وبعدين دي سمرة قوي، وأنا نفسي أجوزك واحدة بيضة، وصدرها كبير زي ما تكون بترضَّع! ده شكل ده!

هز رأسه بالإيجاب، ثم قام، فقالت في فزع: مالك يا خالد؟ أنت زعلت مني، إوعى تكون بتحبها يا خالد، أنت راجل يا بني ودي حتة عيلة.

همس في هدوء: أنا بس تعبان شوية يا ماما، وعلى فكرة أنا بكرة صايم..

- ليه؟

- يعني عليَّ ندر بكرة وبعده. صايم شهر أو اتنين مش عارف. ودلوقتي لو حد سأل عليَّ أنا مش موجود.

ثم قال فجأة: شيماء رجعت من المدرسة؟

قالت أمه مسرعة: وفي أوضتها بتذاكر، متخفش يا خالد، كلامك هنا أوامر، ما انت راجل البيت يا بني. من يوم الخناقة الكبيرة وهي ما بتتأخرش أبدًا.

نظرت إلى وجهه وأكملت في ترجٍّ: أنت بتتعب نفسك قوي يا حبيبي خصوصًا مع محمد. ده أنت ولا الأخ يا خالد.. ربنا حيديك ثواب كبير يا بني.

قال في تلقائية: أنا مش بعمل كده علشان الثواب، أنا بعمل كده علشان هو صاحبي. تعرفي مرة حاولت إغلاق عيني لمدة خمس دقائق وأنا جالس لا أفعل شيئًا.. وشعرت بالسخط والعجز والخوف. ولكن هو عليه إغلاق عينيه للأبد.. لا.. أنا لا أفعل هذا من أجل الثواب..

- ووقتك؟

- لا يضيع مع محمد.. هو صديقي.

بدأت في الدعاء له كعادتها. ابتسم ابتسامة مفتعلة ودخل حجرته.

وبعد ثوانٍ دخلت أمه بطبق البقلاوة، وكانت أم خالد تعشق البقلاوة بغزارة، وتأكلها

بغزارة، وتكره بغزارة، وتحزن بغزارة.

وكانت مشاعرها تتدفق كتدفق العسل الساخن على وجه البقلاوة العاجزة عن الحركة!

انتهى من إعطاء محاضرته وهو يفكر في الدرس الخصوصي الذي سيبدأ بعد نصف ساعة. عليه أن يأخذ معه الكتب، ثم يأخذ مفتاح السيارة من المكتب في حجرة المعيدين ثم..

سمع صوتًا من ورائه: دكتور خالد..

التفت وهو ينظر للفتاة القصيرة الضئيلة. ابتسمت، وقالت في خجل: أنا لبنى، الطالبة في صفك في سنة أولى.

قال في ميكانيكية: أهلًا يا لبنى.

كان يسير في بهو الجامعة سريعًا كما يفعل دائمًا، وكانت تسير بجانبه وتتكلم وهي تنهج.

- أنا لبنى، وكنت أريد درسًا خصوصيًّا في مادة الشعر.

توقف. نظر إليها، ثم قال: أنت طالبة في سنة أولى.

قالت في حماس: هل تعرف دكتورة هناء!

- طبعًا أعرف دكتورة هناء. أعرفها جيدًا!

ابتسمت الفتاة في خجل ثم قالت: هي خالتي.

رفع حاجبيه في دهشة، وشكر الله أن لبنى قالت هذا قبل أن يعطيها موعدًا للدرس الأول!

قال في جدية: أنا آسف، أنا لا أعطي دروسًا خصوصية. ممنوع يا لبنى.

همست في ترجٍّ: أرجوك يا دكتور.

قال في حزم: ممنوع.

ثم صمت لثوانٍ وقال: ولكن الدكتورة هناء جمايلها تغرقنا جميعًا، إذا كنت تحتاجين إلى مساعدة فأنا مستعد لأن أساعدك.

ابتسمت في حماس وخجل وهمست: ولكن..

قاطعها: من غير فلوس. أعطيني عنوانك، وسوف أحاول أن آتي لك مرة كل أسبوع، لو استطعت.

- ربنا يخليك يا دكتور.

قال في دهشة فجأة: ولكن كيف لم أعرف أنك ابنة أختها من قبل؟ غريبة!

- علشان طنط هناء قالت لي متقوليش لحد. هي جامدة قوي وعندها ضمير.

- فهمت. السلام عليكم يا لبنى. أراك قريبًا!

لم تكن المرة الأولى التي يعطي فيها درسًا بلا مقابل. فعل هذا كثيرًا منذ تخرجه منذ أربع سنوات. وخاصةً لأولاد الأساتذة والضباط وأصحاب المناصب.

وهناء بالطبع تستحق أن يجاملها، مع أنه يعرف أنها لا تريد مجاملات.. ولكنه يتصرف بطريقة غريبة هذه الأيام. ولا يفكر كثيرًا في أفعاله! وهذا يقلقه!

ليلى أخت هناء كانت النقيض من أختها. نظرتها كانت مترددة ومشوشة، وجسدها ضخم، وملابسها ملونة وضيقة، والذهب يغرق ذراعيها ورقبتها وأصابعها. وكان صوتها قويًّا وعاليًا.

رحَّبت به وكأنه ابنها العائد بعد سنين، واستدارت كالأسد المحبوس في القفص وهي تبحث عن خادمتها وعن البواب وعن الفناجين والقهوة ووو...

أشارت إليه بالجلوس، وصاحت بأعلى صوتها تنادي البواب من المنور.

- يا عبده! رُد يا حمار!

كان عبده يكره ليلى، ويخشاها أكثر من خشيته للواء الذي يسكن في الدور السابع.

وما إن رأته ليلى حتى صاحت: طيب يا ابن الكلب، حضربك علقة، وحخلِّي عادل يعلقك! لما اندهك تيجي على طول!

شعر خالد بعدم ارتياح شديد. وكان الذل يرهقه ويغضبه. وكان يشعر بكم يفقد الإنسان آدميته من أجل العيش في جحور الفقراء، وكيف أصبح أغنياء مصر حكامًا طغاة! في أيديهم الزبد والزاد والمشانق والسياط.

أغمض عينيه للحظات، ثم سمع صوت لبنى يقول في رقة وخجل: تشرب إيه يا دكتور خالد؟

قبل أن ينطق قالت ليلى: لازم تتغدى معانا.

قال في إصرار: لا أستطيع.

قالت في إصرار: لازم يا دكتور.

قال في إصرار وهذه المرأة تستفزه: أنا آسف، عندي شغل.

قالت في حماس وكأنها لم تسمعه: هناء جاية تتغدى معانا النهارده. لازم تستناها.

صمت لثوانٍ وقد وجد نفسه محاطًا بهذه العائلة الغريبة.

ثم قال في صرامة للبنى: لا أستطيع. فلنبدأ الدرس الآن ثم عليَّ أن أذهب.

فتح الكتاب. جلست لبنى بجانبه في خجل وبدأ الدرس.

وكان ينوي أن يضم لبنى إلى مجموعة من مجاميعه! ولكنه بالطبع لا يستطيع وإلَّا فسوف تعرف الدكتورة هناء أنه يعطي دروسًا خصوصية! الحلّ الآخر الذي يفكر فيه جديًّا هو أن يعتذر للبنى، وبما أنه لن يكسب منها على الإطلاق، وبما أن أمها مفترية ومزعجة فمن الأفضل أن يتخلص منها.

ولسبب ما لا يعرفه لم يكن يريد التخلص منها!

وكان يشعر بنظرات أم لبنى تحرق قفاه.. وكان يعرف نظرات الأمهات اللاهثة وراء زوج. وكان قد عانى منها في الكثير من الدروس.

ولم يكن يرى لبنى كامرأة على الإطلاق بل كابنة أخت امرأة.. امرأة عرفها عن قرب. أو لم يعرفها عن قرب.

دق جرس الباب. سمع صوت هناء القوي الهادئ. وكان يرى في خياله نظرتها الثابتة الواثقة.

دخلت هناء وفي يدها طبق مغلّف بالفويل، وقالت لأختها: دي نص بطيخة اشترتها إمبارح بس مقدرتش أخلّصها. كانت جميلة قوي. ممكن الولاد يحبوها.

فتحت ليلى فمها في ذهول، وكان حرص هناء وكلماتها دائمًا يصيبها بالذهول. وكانت ليلى تهمس لزوجها ليلًا كل يوم: أنا عارفة هناء متجوزتش ليه! في حد يقدر يستحملها! هي صعبة وبخيلة ومغرورة و..و

وكان زوجها يدعم كلماتها. وكان زوجها يكره هناء ككرهه للفقر! ويتحاشى

وجودهما معًا في نفس المكان.

ابتسمت هناء: إزيك يا ليلى؟

قالت في حماس: تعرفي خالد المدرس المساعد عندكم؟ جُوَّه في الصالون.. ولد يفرح يا هناء.

نظرت إليها هناء. أطالت نظرها إليها، ثم قالت: يعطي لبنى درسًا؟

- من غير فلوس تصوري؟ في حد كده في الزمان ده؟

قالت في تهكم: لأ مفيش حد كده في الزمان ده. هو طيب قوي وكريم ومعطاء.

- عرفتي إزاي.

- خدوم كمان.

- مش عايز يتغدى معانا.

- عادل جاي على الغدا؟

- لا معلهش مشغول قوي؟

ابتسمت ثم قالت: كويس معاكي يا ليلى؟

قالت في تردد: جدًّا.. هو أحسن راجل في الدنيا.

لم تعرف هناء يومًا ماذا يفعل عادل بزوجته، وكانت تشعر بأنه يهينها، وكانت على يقين بهذا.

همست ليلى في تخاذل: معاكي متين جنيه.. أصلي مش عايزه أبيع حاجة من الدهب، وخلصت مصاريف الشهر و..

نظرت إليها ثم قالت: بالطبع.

- حَردَّهالك أول الشهر يا هناء.

- لو كان أخوكي مخدش ميراثنا كنت مش حتحتاجي تستلفي.

هزت رأسها في خجل، وكانت تتوقع كالعادة كلمات عتاب من أختها الصغيرة، ونصحًا وإرشادًا على الاقتصاد والتدبير والإسراف والمستقبل والأخ الطمَّاع....

قالت ليلى بعد لحظات: لبنى عندك في القسم يا هناء.. عايزينها تبقى معيدة ونفرح

بيها.. خلّي بالك منها، دي بتحبك قوي والأقربون أولى بالمعروف ودي زي بنتك يا اختي.

فتحت هناء فمها في ذهول وكأن ليلى قد طلبت منها أن تضحي بشرفها وتبيع نفسها: الأقربون أولى بالمعروف!

- صح ولا لأ يا اختي.. عادل ساعات يعني بيقول إنك مش خدومة، لكن أنا قلت له أختي خدومة وطيبة وكريمة.

لم تجب هناء. كانت تنظر لأختها في شيء من الازدراء.. شيء من الغضب.

أمسكت ليلى بقطع شيكولاتة كانت تحتفظ بها لوقت كهذا وبدأت تأكلها في ارتباك ثم قالت وهي تبتلع آخر قطعة: انت زعلتي مني ولا إيه؟

- ليلى المعروف اللي ضد ضميري يبقى جريمة مش معروف وكفاية شيكولاتة! كده مش كويس علشانك.

احمر وجه ليلى وقالت في ارتباك وهي تبحث عن قطعة أخرى: انت مش ست ولَّا إيه؟ في ست متحبّش الشيكولاتة. يا اختي الحلويات دي هي اللي بتخليني أقدر أعيش. الست من غير ما تاكل حلويات يبقى عندها فراغ عاطفي! وانت كفاية عليكي الفراغ اللِّي انت فيه.. شوية شيكولاتة يساعدونا على الأيام المرة! بكره لمّا تبقي قدي تفهمي! في وقت يا هناء في عمر الست مينفعهاش غير السكر والحلويات.

- لن أتناقش معك. لماذا أتناقش معك؟ لن تفهمي.

أغلق خالد الكتاب، ثم قال وهو يبتسم: أراك يوم السبت يا لبنى..عندك أي سؤال؟

قالت في حماس: نعم. هل يمكن أن تتغدى معنا اليوم؟

نظر إليها في دهشة ثم قال: بابا بيشتغل إيه يا لبنى؟

- رجل أعمال. عنده مصنع مسامير.

- هو جاي على الغدا؟

- مش عارفة!

قال في صرامة: لو كان مش جاي على الغدا ميصحش أتغدى معاكم!

قالت في حماس: هو جاي طبعًا.. أصل بابي حصلت له حادثة من شهر فظيعة!

- حادثة؟ بالعربية؟

- لأ..أصل بابي ناجح قوي وعنده أعداء كتير. في يوم كان بيزور واحد صاحبه في شقته في المهندسين، وبعدين دخل عليه حرامي أو واحد من أعدائه.. مش عارفة وضربه بالرصاص وسرق كل لبسه كمان وسابه.. يعني كده من غير هدوم وبينزف في الشقة..

ترقرقت الدموع في عينيها وأكملت: كان حيموت لولا الجيران سمعوا صوت الرصاص، والراجل هرب.

ثم همست من بين دموعها: أنا خايفة عليه قوي يا دكتور خالد.

كاد ينفجر من الضحك! وكانت قصة غريبة ولم يفهمها! ولا يعرف لماذا تحكيها لبنى؟ هل أثرت فيها إلى هذا الحد؟.. هل تحاول أن تفتح معه حديثًا؟

ولكن أبا لبنى رجل.. بماذا يصفه؟ لا بأس.. هو يفهم.. لو كانت ليلى زوجته كان سيفعل الكثير!

وجدوه عاريًا وقد أصيب برصاص رجل آخر في شقة! ولم يتكلم أحد عن سيدة بالطبع، ولا عن الرجل الذي أطلق الرصاص في الغالب على زوجته وعشيقها!

ابتسم في تهكم ثم قال: أبوك راجل شجاع قوي.

هزَّت رأسها بالإيجاب: قوي.. حتتغدى معانا؟

قام قائلًا: لا. ولكني أريد أن أسلّم على الدكتورة قبل أن أرحل.

فتح الباب. التقت أعينهما، ثم ابتسم في فتور، فردت له الابتسامة، وقال وهو يتجه إلى الباب: فرصة سعيدة يا دكتورة.. سلام عليكم.

وبما أن دكتورة هناء قد أمسكت بزمام الأمور، فقد خضعت لنفس المراسم المصرية القديمة التي تعطي السلطة والقوة لأصحاب القرار عن طريق بعض الرموز العينية البسيطة.

ولم يمر شهر حتى أصبح مكتب الدكتورة هناء ممتلئًا عن آخره بنتائج الحائط والأجندات والأقلام وقطاعات الأظرف، وكلما دخلت مكتبها جلست في انتظار النتيجة الجديدة بصور الفراعنة أو بالمناظر الطبيعية أو بالأماكن الأثرية.. وأصبح لكل شهر

طعم جديد في كل نتيجة. وعندما عَدَّت النتائج وجدت حوالي خمسمائة نتيجة من الأساتذة والمعيدين والطلاب وأولياء أمور الطلاب والموظفين والعمال حتى الفراش أهداها نتيجة صغيرة.

وأصبح الكل يزورها ويطري عليها وعلى إنجازاتها وسياستها.. وضميرها اليقظ وشخصيتها المحترمة. وعندما كانت تذكرهم بأنها أمسكت الحكم من شهر فقط كانوا يقولون في حماس: ولكنك غيرت كل شيء، ولكنك مختلفة.. عندك ضمير، وقلبك على الجامعة.. ربنا يديك على قد نيتك!

وأصبحت الأيدي ترتجف وهي تصافحها، والألسن تتلعثم، والأعين تخجل والرجال والنساء سواء في احترامهم وإطرائهم ورغبتهم في التطوع لإصلاح المؤسسة وأصحاب المؤسسة!

والشعور بالعظمة مثمل وعذب عذوبة الماء المثلج في يوم شديد الحرارة. ولم تكن هناء ساذجة، ولم تتأثر بآراء وتطوعات وإطراء الجميع، ولكنها كانت إنسانة.. وشعرت بفخر الإنسان الذي حصل للتو على حكم البلاد وفي خزانته الملايين، وخلفه شعب يحتاج إلى الإرشاد والتوجيه والمساعدة والعلم.

وتعيين سكرتيرتها كان سريعًا وسهلًا. وأشرفت هي على كل الإجراءات بنفسها.

وكانت رشا تفهمها قبل أن تتكلم وتتعلم سريعًا.

وعندما دخلت الدكتورة مايسة لتهنئ هناء تهنئة خاصة.. كانت متأخرة شهرًا ونصفًا، وكانت مايسة كالعادة تمسك بمنديل لتمسح عرقها. والمنديل لا يترك أصابعها، وترتدي عباءة زرقاء وحجابًا أزرق مزركشًا والكثير من الخواتم والسلاسل والغوايش، وكانت ابتسامتها صفراء، وقالت في صوت متأثر وهي تجلس أمام هناء: ألف مبروك يا هناء. إنتِ تستاهلي كل خير.

ابتسمت هناء وقالت في ثقة: وأنت أيضًا يا مايسة.

وبدأت مايسة في الكلام المستمر، وكأن الكلام سيحميها من إظهار القرف الذي كانت تشعر به تجاه هناء وأسلوبها المتعجرف الغريب!

وبدأت مايسة في الافتخار بإنجازات زوجها وأبنائها، وكأنها تحاول توصيل رسالة كره موجه في اتجاه العدو في قسوة وقوة.

وعرفت هناء هدف مايسة من حك الجروح بالملح، وقولها في جبن بلا مواجهة! يا هناء ربما أنت رئيسة القسم ولكنك عانس! بلا طفل ولا زوج..

وعندما انتهت المقابلة المشحونة بالأسلحة النووية والكيماوية وغير المشروعة قامت هناء وبحثت عن شيء في أدراج مكتبها، وكان كل شك مايسة في أنها تبحث عن مسدس أو مدفع جاهز لإطلاق الطلقات القاتلة! أخرجت هناء شيئًا، وابتسمت قائلة لمايسة: يا مايسة.. لو سمحتِ تقبلي مني الهدية البسيطة دي. ساعة..يا ريت السنة دي تبصي في الساعة قبل ما تطلعي من المحاضرة، لحسن باين إنك معندكيش ساعة.. المحاضرة ساعتين يا مايسة مش خمسة وأربعين دقيقة.

فتحت مايسة عينيها والشَّرَر يخرج منها، وفتحت فمها والنار تخرج منه كالتنين، ولم تأخذ الساعة. ابتسمت في فتور، واستأذنت بالخروج.

ضحكت هناء ضحكة عالية، ونادت على سكرتيرتها قائلة في اشمئزاز: رشا.. ما رأيك في مايسة؟ ألا تظنين أنها تخينة قوي..بصراحة لا بد للمرأة من أن تهتم بمظهرها ووزنها بعض الشيء! تهمل في نفسها وفي أبحاثها!

قالت رشا في حماس: هي ليست مثلك يا دكتورة.

نظرت إليها هناء في حدة ثم قالت: آه رشا.. لم تفهميني بعد.. أنا لا أحب الإطراء.. ليس من سكرتيرتي.. من الجميع ولكن ليس منك أنت. أنت لا بد أن تكوني عيني وليس نظارتي الملونة!

خالد عبد الرحمن! تفكر فيه كثيرًا هذه الأيام. وتراه كثيرًا. أليس هذا ما كانت تريد؟ خالد شاب ذكي وطموح ويعمل بجدية نادرة! كان من الأوائل في الثانوية العامة، يحفظ القرآن عن ظهر قلب، وكان فخر عائلته وبولاق كلها. مثل مصري مشرف!

ابتسمت وهي تمدد ظهرها على المقعد الجلديّ الفخم في مكتبها.

خالد عبد الرحمن! بين أصابعها الآن لتشكله كالصلصال. وماذا تريد منه إذن؟

الآن وهي في قمة سعادتها وانتصارها تحتاج إلى مساعدته من حين إلى حين لا أكثر.

مساعدته في ماذا؟

في الأشياء التكنيكية كالكمبيوتر.

نادت على سكرتيرتها الجديدة، طلبت مقابلة خالد.

فردت ظهرها على المقعد.

الآن الدنيا بين يديها، الآن هي تريد عمرها الضائع، الآن أحيانًا..

لا، لن تفكر في هذا.. سوف تعيش اليوم بيومه، ومصير خالد لم يحدد بعد.. إما أن تدفع به إلى المقصلة، أو إلى أحضانها أو الاثنين معًا!

دخل.. بدا مترددًا.

أحيانًا يبدو مترددًا وخجولًا، وأحيانًا أخرى يبدو جريئًا وعنيفًا! والآن يبدو مترددًا!

قالت في حزم: أريد مساعدتك يا خالد.

لم ينظر إليها، قال في ميكانيكية وهو يقف بجانب الباب: تحت أمرك يا دكتورة.

قالت في جدية: عندي مشكلة في الكمبيوتر. حفظت محاضرتي الأخيرة في الكمبيوتر، ولا أستطيع أن أجدها الآن.

كانت تجلس على مقعدها في ثقة..

بدا عليه التردد من جديد، ثم قال: هل يمكنني أن أغلق الباب.

قالت وهي تقوم من المقعد وتفتح الكمبيوتر: بالطبع.

أغلق الباب واتجه إلى الكمبيوتر. جلست من جديد على المقعد، وأزاحت شاشة الكمبيوتر ناحيته.. لم يكن يفصل بينهما سوى بضعة سنتيمترات. كانت تشعر به كما لم تشعر برجل من قبل. بدا منهمكًا في البحث عن الملف الضائع في الكمبيوتر. وكان خبيرًا في الكمبيوتر، وكان شابًا. وانحنى على شاشة الكمبيوتر، وأسند ذراعه على مكتبها، وبدأ يعمل دون كلمة.

بدأ قلبها يخفق.. ولا تستطيع التحكم فيه، وكانت تريده كالمراهقة وهي في الأربعين، وكأن جسدها قام وبعث بعد موت سنين، وليته لم يقم ولم يبعث!

لماذا الآن؟ لماذا تسمح لهذه التفاهات بأن تقضي عليها. وكانت تخاف من هذه المشاعر وتتمنى أن تبتر أنوثتها من جذورها. ولا تدري كيف.

وامتزجت مشاعرها ما بين شوق وشعور بالذنب والخزي لكونها امرأة، وشعور بالثقة والقوة والقدرة على الحصول على كل شيء وأي شيء!

وكان هناك أيضًا الشعور بأنها مَصَّاصة دماء تمتص دماء هذا الشاب!

وكان هناك بركان كامن لم تفكر فيه، هاج وماج وقلب حياتها رأسًا على عقب! ليتها لم تفقد عذريتها. ليتها أبقت الغلاف على الصندوق السحري الذي تود اكتشافه الآن.

ولكن.. عندها القدرة على الحصول على أي شيء وكل شيء!

بدأت أصابعها تدق على المكتب في عصبية. نظرت إليه من جديد وهو مُنْحَنٍ على شاشة الكمبيوتر، ثم تحركت أصابعها في بطء.. ومرّت بأصابعها على عموده الفقري وهمست: هل استطعت أن تجد الملف؟

بلع ريقه.. ارتجفت يده لحظة، ثم تجمد مكانه وكأنها سحرته! حولته إلى حجر!

لم ينطق. لم يتحرك. بقي ساكنًا ورغبته فيها تمزّق أحشاءه، والشوق إليها يطفو على السطح.

لا تزال أصابعها على ظهره. لا يزال يشعر بها.

ثم انتفضت من مكانها في عصبية وقالت في ضيق: لا بد أن نتزوج!

بلع ريقه من جديد، ثم همس في صوت مبحوح: معذرة!!!

قالت في جدية: لا بد أن نتزوج.

تحرك من أمام شاشة الكمبيوتر. نظر إليها ولم ينطق.

- لماذا تنظر إليَّ هكذا؟

- مرة أخرى أحاول أن أفهم.

- لا شيء يحتاج إلى فهم. لقد فكرت وقرَّرت أن أتزوجك.

وهذا الشعور المثمل بالقوة يكاد يفقدها عقلها. ولم لا. في يدها كل شيء وأي شيء.

ساد الصمت برهة، وكأنه يحاول أن يستعيد تركيزه وسيطرته على نفسه.

ثم قال في سخريته التي اعتادتها: هل يمكنني أن أسأل عن سبب تغيير موقفك يا دكتورة وخاصَّةً الآن؟ لماذا تثقين بي؟ ماذا لو أذعت الخبر؟ على ما أعتقد أنت تريدين زواجًا سريًّا؟ أم أنني جرحتك بمجرد الفكرة؟

قالت في قوة: أريد زواجًا شرعيًّا على يد مأذون.

- وتريدين لكل الجامعة أن تعرف وأهلك وكل الناس؟

قالت في قوة: لا.

- ولماذا أوافق على هذا؟ تحت تهديد ما؟ حتى الدكتوراه لا تستحق أن أبيع نفسي من أجلها. لماذا أتزوجك هكذا؟

فتحت فمها في فزع: لقد فقدت عقلك بالتأكيد، لا تَنْسَ يومًا الحدود بيننا. أنا فقط أريد أن أتزوجك لمجرد الاحتمال أنني حامل. من يدري؟

كاد ينفجر في الضحك، ثم قال في هدوء: بعد ثلاثة أشهر أعتقد أنك تعلمين ما إذا كنت حاملًا. هل أنت حامل يا دكتورة؟

قالت في قوة وهي تجلس على مكتبها: أنا من أسأل، أنا وليس أنت، أنت لا تستجوبني، لقد فكرت في أن هذا ربما يكون عَرْضًا مُغرِيًا بالنسبة لك ولكن..

نظر إليها في دهشة: مُغْرٍ لماذا؟

لم تجب.

ابتسم قائلًا في تلقائية: لك حق. أنا آسف. ربما تكونين حاملًا. أنا موافق يا دكتورة.

ابتسمت في انتصار وقالت: ولي شروط.

- أوافق عليها كلها.

- لا أحد يعرف.

- بالطبع.

- لا ترفع الكلفة بيننا أبدًا.

نظر إلى وجهها، ثم ابتسم قائلًا: أبدًا. لن أرفعها.

- علاقتنا ستبقى كما هي، أستاذ وتلميذ.

- كيف؟

- ستأتي إلى بيتي لأشرف على الدكتوراه من حين إلى حين، وأبدًا لن تبيت معي في نفس البيت بعد الأسبوع الأول من الزواج.

فتح الباب قبل أن يفكر في اقتراحها قائلًا: متى نكتب الكتاب؟ اليوم؟

ابتسمت في شيء من الرقة: ربما!

فقد عقله. لا بد أنه فقد عقله. هو لا يريد الزواج منها. ماذا يريد إذن؟ يريدها. يريد أن يشبع هذه الرغبة التي تكاد تمزقه ولن يشبعها غيرها. علاقة إذن! لمدة محددة. ولكنها ليست علاقة آثمة. نعم. هو لا يفعل الفاحشة. هي زوجته. لن يشعر بالذنب والخزي والخوف. لا لن يفعل.

انفجر خالد في الضحك وهو يسير بجانب محمد.

قال محمد في دهشة: ماذا بك؟

- أشياء غريبة تجري لي هذه الأيام. شيء كنت أريده وسوف أحصل عليه.

ابتسم محمد قائلًا: يدها ناعمة وطريَّة. هل هي جميلة..الدكتورة هناء؟

قال في تلقائية: ربما.

صاح محمد: ماذا تقصد بربما؟ كنت دائمًا تصف لي كل شيء. صفها لي يا خالد. صفها لي ثم احكِ لي عن قصتك معها.

قال في ارتباك: لا يوجد ما أحكيه. هي مجنونة كما ترى، ونهايتها قريبة، واعتادت الوحدة على ما أعتقد.

- عنيفة وشرسة مع الرجال. من يتحملها؟

- لا أدري. رجل مجنون. عاش عاقلًا، ويريد أن يفقد صوابه مرَّة ربما.

- كأنك تصف نفسك.. ولكنك تريد من تطيعك، أليس كذلك؟ وهي تريد من يطيعها، مثلها مثل شجرة الدر. أخشى أن تقتلك في الحمام يا صديقي. فهي مغرمة بالتاريخ والقيادة والسلطة. حتبيع أمها من أجل السلطة.

- أنا لست أمها والحمد لله، واطمئن، لن أدخل الحمام في بيتها أبدًا. سوف أتوخى الحذر كما نصحتني. ها قد وصلنا، مع السلامة يا محمد.

- صوتك سعيد وكأنك تنتظر شيئًا! ماذا ستفعل اليوم؟

- أنا في الإسكندرية. إذا سألتك أمي عني قل لها هذا، وقد أخبرتها بنفس الشيء. وسأبقى في الإسكندرية أسبوعًا على الأقل.

وهل ستذهب إلى الإسكندرية حقًّا؟

- بالطبع لا.
- أين ستذهب إذن؟
- لن أجيب عن أيِّ سؤال.

- 4 -

تمدَّد خالد على السرير وهو يتنفس في بطء واسترخاء. طوى ذراعيه وراء ظهره، ولم يكن يريد أن ينطق. كان يشعر بها بجانبه رقيقة، خائفة، منعدمة الثقة كالحمامة عندما تدخل بيتًا عن طريق الخطأ. كانت تتخبط في كل شيء وأي شيء. وشعر بفخر شديد وهو يعلّم الدكتورة هناء ما تعلمه من الكتب ومن خياله وتجاربه القليلة . كان يريدها، ويريد أن يشعر بها تختلج بين أضلعه. وكان يريد أن يعشقها كما يجب، ويرى جسدها أمامه، ويرى ارتجافها وترددها وخوفها، وكل ما يجعلها ضعيفة أمامه. وكانت ضعيفة. ولم تكن ترى ضعفها. وكانت تريد إثبات نفسها، وكان هو القائد هذه المرة.

همس وهو يقبّل شعرها وقد أدارت وجهها عنه من الخجل: كنت أذاكر طوال الأشهر الماضية حتى لا أخيب أملك يا دكتورة، ولكنني أعتقد أنني أحتاج إلى شرح باستفاضة أكثر.

نظرت له في شوق وخجل، فقرّب وجهه من وجهها: لا يمكن أن تحرمي الطالب من العلم وخاصَّةً إذا كان طالبك.

همست في تهكم: في هذا الشأن أعتقد أنك تفوقت على الأستاذ.

أحاط وجهها بيديه وهمس: أريد أن أقبلك قبلة طويلة.

بلعت ريقها قائلة في ارتباك: نعم، ثم ترحل، لقد تأخر الوقت.

- ولو بقيت معك، لو نمت بين ذراعي ماذا في ذلك؟

قالت بجدية: البواب والناس و..

- اليوم فقط.

- ربما اليوم فقط. ولكن البواب..

- أنا سأتصرف معه.

وعندما استيقظ كان ينظر إليها وهى تضم ركبتيها كالطفل الصغير، وتبدو صغيرة ولا حول لها ولا قوة. بدأ يشعر بعدم ارتياح..الآن ستعود لتأمر وتنهى وتضع شروطها

وتطلب الطاعة. وسوف يبقى هذا الحاجز بينهما..حاجز خلقته الظروف والمناصب.

ولكنها زوجته.

وماذا يعني هذا؟ ولماذا تزوجته؟

ولماذا كل هذه الأسئلة. إنه سعيد، وهذا الارتياح الذي يشعر به والحرية والنشوة..آه من النشوة!

فتحت عينيها..فركتهما بيديها، ثم نظرت إليه قائلة: خالد، صباح الخير.

- صباح النور يا دكتورة. هل تريدين أن تأكلي شيئًا؟

تنهدت قائلة: أنا عادةً لا أفطر، ولكنني سأفطر اليوم.

ساد الصمت لحظات، وكأن كلًّا منهما يتوقع شيئًا، ثم قال هو: حسنًا.. هل ستجهزين الإفطار. أنا أيضًا لا أفطر، ولكنني أريد أن أفطر اليوم معك. ماذا تفطرين؟

فتحت فمها في ذهول: تريدني أن أجهز أنا لك الإفطار؟ هل تمزح؟

فتح فمه وكأنه على وشك أن يوبخها، ثم سيطر على نفسه، وقال فجأة: المشكلة أنني لم أعتد أن أجهز الإفطار لنفسي.

- و أنا لا أجهز الإفطار لأحد وخاصَّةً لطالب عندي!

قام من السرير قائلًا وهو يتكلَّف الهدوء: لن نفطر إذن؟

- تُفضّل ألا تفطر عن أن تقوم بتجهيز الإفطار؟ ماذا ستفعل وقت الغداء والعشاء؟

- لا أدري. لم أتزوج من أستاذتي من قبل. علينا أن ننتظر الغداء أو نأكل بالخارج.

- أو لا نأكل معًا.

قال وهو يضع ملابسه: هذا أيضًا جائز. سوف آتي لك بعد الغداء.

قالت فجأة: انتظر.. خالد، عندي فكرة. أنا أجهز الغداء وأنت تغسل الصحون. ما رأيك؟

قال في شيء من الغيظ: لماذا لا تتصرفين كامرأة! ماذا في ذلك؟ هل ستفقدين قوتك لو تصرفت كامرأة يومًا واحدًا؟!

صاحت وهي تنتفض من على السرير: وأنت ستفقد رجولتك لو غسلت الصحون؟

نظر إليها وهي تزيح شعرها من على عينيها، ثم قال في رفق: حسنًا فلنحاول.

ليس من عادتها أن تجهز الغداء لأكثر من فرد، ولا من عادتها أن تطبخ لأكثر من فرد، ولا من عادتها أن ترى أكثر من فرد.

وضعت طبقين على المنضدة، ثم أخرجت السلاطة التي جهزتها منذ ساعة من الثلاجة، ووضعتها على المنضدة، وأخرجت الجبن الشيدر المقطع والزيتون في بطء وهي تنظر إلى ساعتها. قال إنه لن يتأخر. في الثالثة سيكون هنا.

أربك حياتها هذا الرجل. ولكن لا بأس. هي سعيدة بعض الشيء.. أحيانًا.. تشعر بنشوة عارمة.

دق جرس الباب فانتظرت ثواني قبل أن تفتح، وإلا فسيظن أنها كانت في انتظاره طوال اليوم!

ثم سارت في بطء وفتحت الباب. ابتسم لها وهو لا يدري هل يضمها إلى صدره، هل يقبلها.. عادت علاقتهما شبه رسمية، شبه محرجة. شعر بتوتر غريب لا يمر به عادةً. قالت هي في ثقة: ازيك يا خالد.

سار خطوة، فقالت في صرامة: خالد، أرجوك اخلع حذاءك؛ فالخادمة لا تأتي سوى يوم الجمعة، وأنا عادةً لا أسمح لأحد بدخول البيت بالحذاء، ولكن لم أكن أريد أن أحرجك، أما الآن فعلاقتنا غير رسمية.

قال في هدوء مزعوم: بالطبع لا يوجد مشكلة. عادةً الناس تطلب هذا لأنك غالبًا ما تصلِّين على الأرض، وتريدين أن تبقيها نظيفة.

نظرت إليه وقالت: ليس هذا هو السبب، يمكنني أن أصلي في غرفتي، أو على سجادة الصلاة. أنا فقط أحب النظافة والنظام.

انحنى ليخلع حذاءه ثم قال وهو يمسك به: أين أضعه؟

- في الدولاب اللي على الشمال، الدرفة التانية.

دخل في شيء من الدهشة، شيء من عدم الارتياح، وضع الحذاء ثم انتظر بجانب الخزانة بلا حركة وهو يحمل لفافة من الحلويات الشرقية.

قالت وهي تشير إليه ليجلس: تفضل يا خالد. ما هذا؟

قال في قلق وهو يعرف الإجابة التي ستعطيها: حلويات شرقية..لا تأكلينها أليس كذلك؟

- أكرهها وخاصة العسل الذي يلتصق بالأصابع لساعات.

قال في دهشة: هذا هو السبب الوحيد لكرهها؟ يمكنني أن أضعها في فمك، وفي هذه الحال لن تضطري إلى لمسها بأصابعك على الإطلاق.

قالت وكأن فزعها لا يحتمل: خالد لا تنسَ الاتفاق! لا ترفع الكلفة بيننا.

ابتسم قائلًا: حسنًا. أنا آسف، كنت أظن من واجبي أن أطعمك، وأن أقبلك، وأن أضمك وأعشقك و..

قالت في خجل ممزوج بالفزع: لا تتكلم هكذا أبدًا.

قام قائلًا: خلعت الحذاء ووضعته في الخزانة، والآن هل يمكن أن نأكل؟

أشارت له بالجلوس على المائدة، نظر إلى الطعام الغريب. قطع جبن وسلاطة مكونة من المكرونة الباردة والتونة الشديدة الزفارة.

ابتسم وبدأ في الأكل في صمت، فقالت هي: عادة أنا لا أطبخ. عندما تسكن وحدك لا تحتاج إلى أن تطبخ، ولا تريد أن تطبخ وخاصَّة المأكولات المصرية الدسمة.. أكره الزبد والحلويات، وكل الدسامة والإفراط. نحن المصريين نُفرّط في كل شيء، في جمالنا، في مشاعرنا، في حقوقنا ونُفرط في الأكل والجنس، وكأن هذا كفيل بأن ينهي كل المشكلات.

قال في دهشة من خطبتها الطويلة: ما دمتِ الآن في القيادة فمشاكلنا كلها محلولة، والمصريون سيبدءون بأكل التونة والتخلي عن الجنس!

تفحصته ثم قالت: لا تأكل..ألا يعجبك الطعام؟

- لم أعتده، ولكنه جميل. أختك مختلفة عنك يا دكتورة كل الاختلاف.

قالت وكأنها تتحاشى الكلام في أي موضوع خاص: نعم. ما رأيك في ابنتها؟

- لبنى بنت طيبة وكويسة.

قالت في حماس: أنا أيضًا أحبها. وأكره والدها.

قال في فضول: لماذا؟

نظرت إليه من جديد: لا تأكل..

- لماذا تتحاشين الكلام معي؟

- لا أثق بك بالطبع!

- و ما دخل الثقة بالكلام؟ ثم أنت كبلتني بأغلال كثيرة. لن أستطيع الهرب.

- أنا لا أثق بأحد على الإطلاق.

قامت في شيء من العصبية، وبدأت في لمّ الأطباق: لا تحب طعامي، أليس كذلك؟ إذا كنت تنوي جرحي بعدم الأكل فـ..

قاطعها في صرامة: لن نتشاجر الآن يا دكتورة، لن نتشاجر طوال الوقت. هل تريديني أن أغسل الصحون الآن؟

هزَّت رأسها بالإيجاب وهي تشعر بشيء من الذنب والخجل. لقد أساءت معاملته، لو استمرت هكذا فسوف يرحل. ولو رحل فستبقى مع الوحدة من جديد.

ابتسمت في رقة ونظرت إليه وهو يمسك بمسحوق الغسيل ولا يدري ماذا يفعل به، ثم أمسك بالإسفنجة، ووضع عليها بعض المسحوق..الكثير من المسحوق..

قالت في غضب: خلِّي بالك.. خلَّصت نص العلبة. ده نوع مستورد..العلبة بعشرة جنيه.

نظر إليها في غضب.. ترك الإسفنجة، وقال في صرامة: سأدفعها لك.. دكتورة هناء.. هذا الغداء ليس كما توقعت، وليس كما توقعتِ أنت، وهذه المسرحية يجب أن تنتهي. ما رأيك؟

نظرت له قائلة: ماذا تعني؟

خرج من المطبخ، واتجه إلى الخزانة ليأخذ حذاءه في صمت، فقالت هي في توتر: خالد، إيَّاك أن تخرج دون أن آذن لك!

نظر إليها في تحدٍّ قائلًا: لماذا؟ لن يأتي اليوم الذي آخذ فيه أوامري من امرأة، أيّ امرأة!

فتحت فمها في ذهول: ماذا قلت؟ تظنني امرأة؟

- نعم

- أنا دكتورة، ولست امرأة. تنظر لي كامرأة وليس أكثر.. ماذا تتوقع مني؟ سأثبت لك قوة هذه المرأة إذن.

قال في استياء: دائمًا تهددينني، دائمًا، وكأن هذه هي الطريقة الوحيدة للتعامل معي، لماذا؟ لماذا تشعرين بعدم الأمان والثقة في وجودي!

- من أجل أفكارك هذه!

قال في حيرة: والآن ماذا تريدين؟

فكرت قليلًا، ثم قالت: لنتذوق الحلويات الشرقية معًا..ما رأيك؟ قلتَ لي إن هناك طريقة لأكلها دون أن تلتصق أصابعي بالعسل!

نظر إليها وكأنها صفعته. تعاني من عدم اتزان لم يره من قبل في امرأة قط! كان يعرف أن النساء عادةً بطبيعتهن يعانين من عدم اتزان، ولكنه لم يتوقع كل هذا الجنون!

استجمعت كل شجاعتها وأمسكت بيده وهمست: خالد..

لم يكن يدري ماذا يفعل الآن وماذا يقول!

كان أسبوعًا صعبًا ولذيذًا، وكانت كالغزال البري الذي لا يألف بني الإنسان، ولا يريد أن يختلط ببشر، وكانت المرة الأولى التي تنام فيها بين أحضان رجل، والمرة الأولى التي يترك أحد النور في الحمام دون أن يطفئه، وكانت غاضبة من هذا وقلقة على فاتورة الكهرباء، وكان هناك الكثير الذي يثير أعصابها.. إذا تمدد خالد على السرير بملابسه.. إذا ترك النور في المطبخ..إذا ألقى ببقايا الطعام في الزبالة..إذا اشترى الحلويات.. إذا جاء بالمأكولات الرخيصة المقلية من الخارج. إذا..وإذا.

منذ موت والدتها منذ عشر سنوات لم يتحكم أحد في حياتها، وكان هناك الكثير من الضيق الآن لوجوده، وكان ضيقها لأنها تريد في المساء أن تجلس في هدوء تستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية، ثم تذهب إلى سريرها وتنام. تعشق الهدوء والنظام، وتكره التبذير والإسراف.

وخالد مسرف وشاب، ويريد الاستمتاع بكل شيء، وكان يعجبها أنه لا يقبل أن تَصْرِف هي أي شيء في البيت. كان يشتري هو كل شيء.

كانت تعشق كرمه ورجولته أحيانًا، وتكره شرقيته وتخلُّفه أحيانًا. كان كريمًا. وكان معه الكثير من المال.. لماذا؟

من مكسبه من الجامعة! إنه يبدو أغنى منها..

نظرت إليه وهو يشاهد التليفزيون.. مباراة كرة القدم، في إمعان وحماس. كان يبدو صغيرًا.. صغيرًا جدًّا.

خاصَّة عندما يكسب الفريق الذي يشجعه، فيصيح في سعادة طفل تعلَّم ركوب الدراجة للتو!

وكانت تشاهده وكأنه مخلوق من الفضاء! رجل، وهي لا تعرف الرجال.. وشاب، وهي لا تعرف الشباب، ومن بولاق وهي لا تعرف بولاق. تعلّمت الكثير هذا الأسبوع.

ماذا تفعل؟ لا بد أنها فقدت عقلها!

قالت وهي تجلس بجانبه في هدوء: غدًا سترحل إذن..مرَّ الأسبوع سريعًا.

نظر إليها وابتسم ابتسامة طفل بريء وشقي قائلًا: لن أقول كان أجمل أسبوع في حياتي، ولكنه كان..أكثر أسبوع إثارة.

- ماذا تقصد؟

قال وهو يسند رأسه على ظهر الكنبة: لا شيء.

قالت في صوتها القوي وكأنها صاحبة السلطة والقيادة: من أين أتيت بكل هذا المال؟ لقد امتنعت عن الدروس الخصوصية، أليس كذلك؟

نظر إليها في غضب: دكتورة، لا يمكنك أن تستغلي أي شيء تعرفينه عني في هذا البيت وأنت بين أحضاني ضدي في العمل ..هذا أسلوب لا يليق بك.

بلعت ريقها..من الغد لا تدري ماذا سيحدث. هل سيتركها للأبد؟ هل سيأتي من حين إلى حين؟ سيتركها قريبًا بالطبع. لا بد أنه يظن أنها أنانية ومزعجة، ولذا لم تتزوج. لأنها لا تفكر إلا في نفسها.

ومن يدري ربما يكون على صواب.

وضعت أصابعها على يده وعيناه لا تزالان تحلقان في التليفزيون. مرت بأصابعها على ذراعه، ثم رفعت يده إلى فمها وهمست: هل ستتركني للأبد غدًا؟

نظر إليها وأنفاسه تكاد تتوقف.. وتوقفت بالفعل.. لحظات..عندما قبّلت يده في رقة وتواضع وحنان ورجاء. أبقت يده على فمها وهمست: لا تتركني يا خالد.. ليس بعد.. في

المستقبل ربما..

شدَّ يدها، وألقى برأسها على صدره.

عبس وجهه، وقال في شيء من الذهول، شيء من اليأس: ماذا تقصدين بـ «لا تتركني»؟ ماذا تتوقعين؟

همست وهي تقبل صدره في رقة وترتجف وترتبك وتضعف ويكاد صوتها يصرخ بخوفها: لا أعرف.. ليس الآن.

ضمَّها بقوة أكثر والحيرة تسيطر عليه. كانت علاقتهما واضحة، أو هذا ما كان يظنه، ولكنه لا يدري ماذا تريد منه بالضبط، ولا ماذا يريد هو منها. لم يعد حتى يدري من تكون.

هذه المرأة الضعيفة التي ألقت بكل الأسلحة واستسلمت له.. لا يدري من تكون.

ضمَّها بقوة وشعر بجسدها ملتصقًا بجسده، وشعر بارتياح وجنون وغضب وحيرة وتردد، وأهم من كل هذا شعر بشوق طاغٍ لها.

ولم يسأل نفسه إذا كانت كل تصرفات الدكتورة هناء مدروسة بعناية أم لا. أو إذا كانت الدكتورة هناء تتعمد إظهار الضعف أحيانًا لتحكم سيطرتها عليه أم لا. ولم يتأكد قط. ولكن أحيانًا بعد فترة بدأ يساوره الشك في أن كل حركة تقوم بها الدكتورة مدروسة بعناية، وأن التلقائية لم تكن سمة من سماتها البارزة.

كانت تجلس بين ذراعيه في حجرتها ولا تنطق. ولا ينطق هو. حتى قالت في عصبية وهي تبتعد عنه بعض الشيء: اليأس.. يا إلهي، كم أكره اليأس!

ثم أخذت تفرك أصابعها في عصبية، وقالت: عندما ترحل غدًا.. هل تريد أن تأتي مرة أخرى؟

قال في حسم: بالطبع. إنك زوجتي، ولست عشيقتي يا دكتورة. سوف آتي ربما بعد غد.

كانت تشعر بأضلعه تغمرها وتهدهدها وتدفئها وتخيفها و..

قالت في شيء من اليأس: لماذا لا تتكلم معي؟

- عن ماذا؟

- عن نفسك وعن عائلتك وطموحك.

فتح فمه لينطق ثم قال: وأنت؟

- أريد أن أتكلم معك.

وتكلَّمت حتى الصباح، وكأنها لم تتكلم قط مع أحد. وكانت تحكي قصصًا بالتفاصيل عن مرض والدها وموته، ومرض والدتها وموتها، وتفاصيل المرض وكيف سرقت زوجة أخيها مصاغ الأم يوم موتها من دولابها، وكيف قاطع أخوها إخوته بسبب الميراث وبسبب زوجته، وكيف تعيش أختها مع زوج طاغية وخائن في خشوع واستسلام. وكيف تكره سيطرة الأغنياء وسطوتهم، وأسلوب أختها مع الفقراء، وكيف تحلم بالعدالة. وكانت تحكي وتحكي لساعات وكأنها خرطوم مياه لم يفتح منذ أعوام، فتحه هو فجأة. وكانت تنفجر وتغضب ويحمر وجهها وهو يشاهدها في صمت.

تنهدت قائلة ونور الصباح يضيء الغرفة فجأة: أرجو ألا تكون قد مللتَ حكاياتي.

ابتسم وهو يلقي برأسه على الوسادة: بالطبع لم أملَّ حكاياتك.

- فلتحكِ لي أنت عن نفسك!

همس وهو يشدها إلى السرير: هل يمكن أن ننام ساعة، ثم أحكي لك كل شيء؟

رفعت كتفيها في لامبالاة قائلة: نعم. ممكن.

أدارت وجهها، فأحاط خصرها بذراعه، ثم همس: لم تتكلمي عن حياتك في أمريكا. كم بقيت هناك؟ هل أحببت هناك؟

بلعت ريقها من هَوْل المفاجأة وصورة رامي قد بدت أمامها. ولم تنطق.

قال من جديد: هل أحببت رجلًا في أمريكا؟

قالت في عصبية: بالطبع تظن أن أي فتاة تسافر وحدها لا بد أن تحب وتصاحب وتصيع وكل حاجة!

صمت لثوان، ثم قال: لا أدري لم أكن لأوافق لو طلبت مني أختي السفر وحدها. ولم أكن أريد لزوجتي أن تسافر وحدها أيضًا، ولكنك مختلفة!

ابتسمت في تهكم: أنا زوجتك، هل تتذكر؟

- لا بد أنك أحببت. طوال هذه الأعوام ألَمْ تحبي أيَّ رجل؟

قالت في شيء من المرارة: لا أريد أن أتكلم عن هذا؟

وكانت جملتها الأخيرة كفيلة بإشعال فضوله وغيرته!

قال وهو يعتدل في جلسته ويترك خصرها: هل أحببت من قبل؟

نظرت إليه ثم قالت في قوة: مرَّة. نعم أحببت زميلًا لي في الجامعة. وليس في أمريكا!

لم يتوقع ردَّها. لم تنكر ولم تتملص من الإجابة، ولماذا تخافه؟

ولم يكن لكلماتها وقع عليه. توقع أن يثور، ولم يفعل، ولم يكن يتصور أن علاقتها بزميلها قد تعدّت الكلمات. وكان يعرف من ارتجافها وحيرتها أن حبها الأول لم يقبّلها حتى!

حتى صفاء كانت تقبل بحرفية أكثر من دكتورة هناء.

قال في هدوء وشيء من الذنب لأنه فتح هذا الموضوع معها: لماذا لم يتزوجك الأحمق؟!

قالت في تهكم: لم يكن يستطيع.

نظر إليها في ذهول: أكان متزوجًا؟

- لا.

- كان فقيرًا!

- لا

- كيف؟ كيف لم يكن يستطيع؟ لم يكن يستطيع أن يتزوج؟

قالت وهي تدير وجهها حتى لا يرى الألم البادي على وجهها: لم يكن يستطيع، كان مسيحيًّا!

فتح فمه في ذهول. المجنونة أضاعت عمرها في حب رجل مستحيل أن ترتبط به و..

همس في شيء من الخوف من إجابتها: هل ما زلت تحبينه؟

نظرت إليه في شيء من الغيظ، ثم قالت: هل أتصرف معك وكأنني ما زلت أحبه؟ هل أبدو لك أنني أحبه؟ لا يا خالد، لم أعد أحبه.

نظر إلى ضوء الشمس الذي غمر الغرفة، وقال: سوف آخذك بين ذراعي دقيقة ربما

ثم أرحل.

هزت رأسها بالإيجاب.

- 5 -

هذا الشعور بالرضا والغبطة لم يشعر به منذ زمن.. ربما منذ الطفولة، وخاصَّة منذ وفاة والده، لم يشعر سوى بالمسئولية الهائلة والرغبة المستمرة في الاستمرار في السير كالجمل في الصحراء.

ولكن مفاجآت الزمن عجيبة!

كان والده يردد على فراش الموت: خلي بالك من اخواتك يا خالد. إنت الكبير يا خالد. إنت الأب من بعدي يا خالد.

وكان يعرف حجم الألم والحيرة اللذين سيشعر بهما بعد وفاة والده. وكان والده صديقه وسنده. وبعد وفاته بدأ التعرف البطيء على أمه وأخته وأخيه. ولم يكن يعرف أمه كثيرًا من قبل، كان جهدها مُسْتَنْفَدًا في توفير الراحة لأبيه والطبخ وتنظيف النجف وأركان الحائط.

وبعد وفاة والده أعلنت ولاءها للملك الجديد، وأصبح هو كل حياتها.

مات والده في وقت استراتيجي.. بعد امتحانات عامه الرابع. وكان عليه البدء في العمل والتفكير منذ لحظة موته. ومنذ فتح يده ليصافح المعزين في والده وهو يعرف أن العالم قد انقلب وأصبح هو مسئولًا عن إعادته إلى مكانه!

ولكنه سعيد.

ولن يحاول فهم الموقف.

هو سعيد، ولمعة جديدة في عينيه واضحة للجميع. تنم عن الراحة والهناء والإثارة! الكثير من الإثارة! لا مطالب، لا تعقيدات، لا تدخلات، لا استغلال، لا بكاء، لا مكر فتاة تريد الاستئثار به كصفاء، ولا فتاة تريد مص دمائه، ولا فتاة تريد مهرًا وشبكة، وأن يعاود أهلها ويأتي بهدية عيد الأم لأمها، وينتظر في صبر لتسمح له بقبلة ولمسة، ثم تشجعه على قبلة ولمسة وأكثر من هذا، ثم تطلب منه الانتظار ثم... وثم..

لا.. كل شيء يسير في تلقائية آدم وحواء بعد خروجهما من الجنة مباشرة! ورائحة الجنة لم تزل في أنفيهما!

نظرت أمه، وقالت وهي تبتسم: تبدو سعيدًا يا خالد.. هل هناك أخبار عن صفاء؟

لم يكن يريد أن يشرح نفسه، ولا أن يخضع لأي تحقيق.

ابتسم لها، وقال في حماس طفل وهو يقوم ويتجه إلى حجرة أخته: ما رأيك يا حاجّة؟ أشتري لكم عَشاءً!

دخل على أخته. كانت تجلس على مكتبها تعبث بالأوراق، وتسبح بخيالها، قال في دفء: شيماء.. هل تذاكرين؟ ماذا تريدين أن تأكلي اليوم؟

قالت الأم مسرعة: كفتة وكباب.

ابتسمت شيماء، وقالت: أنا عايزة هامبورجر.

أمسك بمفتاح البيت ووضعه في جيبه: كفتة وكباب وهامبورجر!

قالت الأم مسرعة: ربنا يخليك يا بني.

ابتسم وهو يخرج من الباب ويشعر مرة أخرى بأنه طفل بلا مسئولية على عاتقه وبلا هموم. ليس عليه أن يجد طريقه في ظلمات الأزقة، ولا أن يصبر ويتحمل، ولا أن يتصرف بحذر.

طفل مليء بطاقة هائلة من الشوق والحماس للحياة.

مصمصت أمه شفتيها عندما خرج، وقالت لشيماء: أخوك طيب قوي..كل الحب ده والعطاء حيروح لواحدة تانية، وحينسانا خالص يا شيماء.. بكرة تشوفي.. الراجل اللي زي ده، الراجل الحنين كده الست تلفه في ثانية! أنا خايفة من البنت صفاء دي يا شيماء.

قالت شيماء في غضب: بس هو عنده واجب من ناحيتنا إحنا، إحنا الأول مش مراته وزفت!

قالت الأم في ملل من غباء ابنتها: ذاكري يا بنتي ربنا يهديكي!

عندما عاد خالد بالعشاء ابتسم لنفسه وقد صرف للتو ثمانين جنيهًا المعاش الشهري لوالده! والدكتورة هناء تنادي بالولاء للمؤسسة والحكومة! ربنا يخليها للحكومة الدكتورة هناء!!

ما أجمل القوة والنصر والنشوة! كانت قادرة على كل شيء وأي شيء. وكانت سعيدة كما لم تسعد من قبل. أصبحت الألوان تؤثر فيها، والأغاني تؤثر فيها، وكل ما

هو رقيق وجميل، وهذا الإشباع العاطفي لم تكن تعرفه قط ولم تكن تتصور أبعاده.

وكان يأتي عادةً كلَّ يوم أو كلَّ يومين، وكان قد تكلم مع البواب الآن، وبالطبع أخبره بكل شيء ووعد البواب خالد بألا ينطق بكلمة، وبالطبع أعطاه رشوة، ولم تسأل ولم تهتم.

فلتكتب تاريخها من هذه اللحظة، لحظة الانتصار، فالتاريخ يكتب للعظماء فقط، وعمرها بين يديها وتحت سيطرتها تمامًا. كل شيء تحت سيطرتها، وما أجمل أن تقبض المرأة على مصيرها وتتحكم فيه! لا لن تبقى وحيدة للأبد، ولن تبقى أستاذة غلبانة، هي رئيسة قسم، وهي ليست وحيدة، وهي قادرة على كل شيء، وأي شيء.

كانت طموحة ولم تكن غبية، وكانت تعرف أن علاقتها بخالد مؤقتة، وستنتهي يومًا ليس ببعيد، وهذا لا يعنيها على الإطلاق؛ فقد ذاقت الحب، وهذا يكفي. سوف تعيش للنجاح والأبحاث والعلم كما كانت تريد، ولكنَّ للعلم مذاقًا آخر الآن؛ حلوًا ولذيذًا.

كانت تتوخى الحذر في علاقتها به، وكان يحترم رغبتها.

وأحيانًا كانت تقابله صدفة عند أختها وهو يساعد لبنى، فتبتسم له في رسمية مفتعلة، ويرد لها الابتسامة ولا يتكلمان كثيرًا.

وعندما قابلتها دكتورة مايسة ونظرت إليها وكأنها تعريها وتتفحص قلبها..ابتسمت هناء في ثقة. فقالت مايسة في مكر: هناء..رايحين إجازة بكرة شرم الشيخ..أنا وجوزي لوحدنا..

ثم ابتسمت وأكملت: شهر عسل جديد يعني.. قلت له خلاص بأه إحنا عجزنا والولاد كبروا.. لكن صمِّم إننا نروح مع بعض لوحدنا. إن شاء الله لازم مرة تيجي معانا يا هناء.

ابتسمت هناء وشعور جديد يسيطر عليها لا تعرفه! شعور بالثقة والفخر وقالت: طبعًا إن شاء الله.

التقت أعينهما. وكانت عينا هناء ممتلئتين بالرضا وتلمعان لمعانًا جديدًا لا تفهمه مايسة. خرجت مايسة من المكتب وتركت هناء جالسة على مقعدها الجلدي الفاخر. تمدَّدت على المقعد وتنهدت..كثيرًا ما كانت تحقد على الكثير من النساء وتحسد الكثير من النساء. كثيرًا ما كانت تؤلمها كلمات كهذه. كثيرًا ما كانت حسرتها لا توصف على

عمرها الضائع. والمرارة لم تكن تترك حلقها. كانت معها وهي تأكل.. وهي تعمل.. وهي تنظر إلى نفسها في المرآة. وقبل الأربعين بأيام أصبحت تكره المرآة، وتكره جسدها وأنوثتها، واتخذت المرارة شكلًا أعنف وأكثر خطورة.. والآن.. الآن..

تنهدت من جديد وهي تحتضن جسدها في فخر..الآن هي تشفق على الجميع..كل النساء.. الآن تشعر بالفخر والارتياح. من هو زوج مايسة؟! من يكون؟.. وهل شعرت مايسة يومًا بما تشعر هي به الآن؟!

ولم يكن هناك امرأة أخرى على وجه الأرض تشعر بما تشعر هي به وهي بين ذراعيه.

ولم يكن هناك امرأة على وجه الأرض نضجت أنوثتها وترعرعت مثلها.

وكان أول رجل في حياتها، ولم تكن تعرف الكثير عن الرجال.. وكان هو كل الرجال الذين لم تعرفهم، ولم يكن لديها الوقت أو الطاقة لتعرفهم.

ولكن كل هذا لن يجعلها يومًا تفقد السيطرة.. لم تزل تكتب تاريخها وتمسك بالقلم.

هذا هو الفرق بينها وبين مايسة. مايسة تابع لرجل.. وهي قائدة لرجل.

هي قائدة للجميع.

اعتادت أن تراه، ولم تكن تحب انتظاره، ولم يكن يتأخر كثيرًا.

ولكن كان لا بد من المنغصات في حياتها، والمنغصات عادةً تأتي من الناس؛ ولذا كانت تكره الناس منذ الصغر!

وأول من أزعجها كانت أختها. كانت حزينة وباهتة، ويداها ترتجفان، وتبدو وكأنها كانت تبكي شهورًا.

أزعجها منظر أختها. سألتها ما إذا كان هناك مشكلة، وردت أختها في صوت متعب: لا مفيش حاجة.

وكانت تعرف أن ليلى تقاسي مع عادل، وكانت تكره عادل كرهًا لا يوصف! ولكن صمت ليلى لم يستمر طويلًا. في صباح يوم السبت دقَّت باب بيت العائلة، أي بيت هناء، وصرخت وهي تحمل حقيبتها: تركني! تركني يا هناء.

مع أن هناء كانت تتوقع هذه النهاية، فلم تنطق، واحترمت نفسها لأنها لم تنطق. وكان

من الطبيعي أن يسأم عادل زوجته ويلقي بها في الشارع. كان من الطبيعي أن يتزوج من فتاة صغيرة، وينفض يده من ليلى وكأنها مبيد حشري! كانت تعرف ولم تنطق. وكانت تشعر بشيء من الحزن لأنها تعرف أيضًا أنها لن تقابل خالد! لن تقابله لفترة طويلة! ما دامت ليلى في بيتها!

لم تر أختها في هذه الحالة قط، ولم تشعر بارتياح وهي ترى كل هذا الضعف. وكانت أختها تعبّر عن نفسها بوضوح ومبالغة، وكانت تصرخ كلما مرَّ يوم ولم يسأل عنها أحد.. لا أولادها ولا زوجها. وتنعى حظها وتدخن السجائر بغزارة، وكأنها على وشك حرق نفسها، وتبتلع المهدئات وتصرخ لساعات. وكانت هناء تشفق عليها في البداية، ولكن رائحة السجائر بدأت تزعجها، واعتياد أختها على الخدم بدأ يزعجها أيضًا؛ فقد كانت أختها تأكل وتترك الطبق على الطاولة في تلقائية، وتدخن وهي تمد يدها في انتظارمن يأتي بالمطفأة. وكلما دخلت حجرة تركت دمارًا وراءها.

بدأت هناء تدعو الله أن يأتي زوجها، وبدأت تستعمل الكثير من معطر الجو.

وأختها لم تزل تصرخ وتصرخ.

همست يومًا في ظلام الليل: هناء.

خرجت هناء من حجرتها وهي نصف نائمة، وقالت: عليَّ أن أذهب للعمل غدًا يا ليلى.

كانت أختها تعوي عواء قطة على وشك الموت، وهمست: هل تشعرين بي؟ هل تعرفين لماذا تركني؟

ذهبت إليها وهي تخاف..تخاف من قوة هذه المشاعر، ومن التعلّق بإنسان كل هذا التعلّق. هزّها عواء أختها، كانت ترتعش وهي تجلس بجانبها، ولا تقوى حتى على لمسها، حتى بدأت أختها تضرب بطنها في قوة: انظري إليَّ.. انظري إليَّ.. أنا تخينة.. تخينة.. أتمنى أن أقطع جسدي قطعًا. بالطبع كان يجب أن يتركني.. انظري إليّ!

بلعت هناء ريقها. أمسكت بيدها في تلقائية وليلى تقاومها وتصيح: لا تفهمين شيئًا.. لا تفهمين شيئًا.

همست في شيء من الألم: ربما أفهم.. ربما أفهم أكثر مما تتوقعين.

- أنا ست يا هناء.. والست محكومة بالطبيعة وبجسدها، والست أسيرة لهذا الجسد الخائن.. وهذا الجسد الخائن يأخذ ولا يعطي، وأمُّنا كانت دائمًا تقول: الست لا تفعل أي

شيء بإرادتها؛ فليس لها إرادة.. الرجل يزرع فيها الطفل، والطفل ينمو بداخلها، وهي لا حول لها ولا قوة. ثم يضمر الجسد وهي لا حول لها ولا قوة. ويحترق الجسد كما أحترق أنا وهي لا حول لها ولا قوة! عندما تبلغين الخمسين مثلي ستفهمين.. أشعر بأنوثتي قد ماتت. الدورة الشهرية توقفت، وهذه الحرارة التي تحرق وجنتي وآكل.. آكل طوال الوقت!

- اهدئي يا ليلى، أرجوك.

- لا بد أن يبحث عن امرأة، أنا لم أعد امرأة.. هل تفهمين؟ جسدنا وطبيعتنا يحكماننا. نحن ضعاف كلَّ الضعف!

قالت هناء في تحدٍّ: لا لسنا ضعافًا. تحكّمي في نفسك من أجل أولادك!

- لا يريدونني.. يريدون مال أبيهم.. قال.. هل تعرفين ماذا قال؟ قال لم أعد أريدك، ويمكنك البقاء في البيت إن أردت، ولكنني لا أريدك.

شعرت هناء باختناق في حلقها وضعف غريب.

- يجب أن تهدئي، أرجوك!

لم يتوقف العواء.. فخرجت من الحجرة، وأمسكت بالتليفون وطلبت سامح ابن أختها. لم يجب.

طلبت ابنة أختها، ولم تجب.

طلبت عادل زوج أختها ولم يجب.

حاولت من جديد، ولم يجب.

كان العواء مخيفًا.. يمكنها التصرف بالطبع. هي ستتصرف. لا تحتاج إلى أحد، ولكن إذا كان هناك إنسان يمكنها أن تتصل به.

طلبت الرقم وسمعت صوته يقول في دهشة: دكتورة هناء! ما الأمر؟

همست في صوت مبحوح: ليلى.. أخاف عليها.. أظنها تحتاج إلى حقنة مهدئة أو مستشفى.. خالد هل يمكنك أن تساعدني؟

قال في تلقائية: بالطبع. سوف آتي على الفور مع طبيب.

لا بد أنه شعر بالفخر لأنها طلبت منه المساعدة.. لا بد أنه يظنها ضعيفة كما تظن

أختها أن المرأة ضعيفة.

أمسكت بالتليفون من جديد، وطلبت رقم زوج أختها مرة أخرى، وأجاب..كان محاطًا بالضوضاء ولم يكن يعرف من يحاول الاتصال به! هذه غلطته أنه لم ينظر للرقم قبل أن يجيب. وكان عادل يطلق اسمًا على كل شخص. وكان كل رقم مقترنًا باسم، ورقم تليفون هناء كان يظهر في شاشة تليفونه المحمول باسم «دراكولا» مصاص الدماء!

قالت في قوة: زوجتك منهارة، وأنا..

قاطعها في اقتضاب: لم تعد زوجتي، لقد قلت لها إنها لو تركت البيت فسوف أطلقها، وفعلت!

قالت في غيظ: أم أولادك إذن تحتاج إلى أولادها وتحتاج إلى طبيب!

- ماذا تريدين مني؟

- أن تأتي الآن..لنتكلم.

- لا يوجد شيء نتكلم فيه.

- عادل.. تعال دلوقتي وإلا سأفضحك، وأنت تعرفني لا يهمني شيء!

انقطع الخط، وكانت تعرف أنه سيأتي، وكانت تريده أن يأتي لتصفعه صفعة تترك آثارها في نفسه للأبد.

أغمضت عينيها والغضب يكاد يفتك بها، وعواء أختها لا يتوقف.

فتحتهما وهي تسمع صوت جرس الباب، فتحت وكان خالد ومعه الطبيب.

نظر إلى وجهها المرهق، وإلى قميص نومها وشعرها المتوحش، وابتسم ولم ينطق. لم يكن هو في حال أفضل، كان يرتدي قميصًا مكرمشًا وبنطلون جينز. دخل الطبيب إلى الحجرة وهي تشعر بالإحراج من عواء أختها.

وضع يده على كتفها بلا إرادية ووقف في ترقب، كادت تنهار، ولكنها لم تفعل.

- ستكون بخير يا هناء.

قال يا هناء!

لم يكن لديها القدرة على النقاش والتحدي.

وكان يعرف مشكلة ليلى، وأخجلها أنه يعرف مشكلة ليلى، وكانت تتمنى أن تكون محاطة فقط بالنساء القويات!

ترك كتفها، ونظر إلى الطبيب وهو يخرج من الحجرة قائلًا: هي بخير الآن؟

- ستنام بعد دقائق، تحتاج إلى علاج، هل يمكن أن تأتي إلى العيادة غدًا؟

هزت هناء رأسها بالإيجاب، وبدأت تبحث عن محفظتها، فقال خالد مسرعًا وهو يرشد الطبيب إلى الخارج ويخرج مبلغًا من جيبه: اتفضل يا دكتور.

فتح باب الشقة ليصطدم الطبيب بعادل.

علت دقات قلبها، وقالت وهي تحاول السيطرة على نفسها: تفضل يا عادل..هذا خالد طالب عندي وصديق.

ابتسم في فتور، وهو في الحقيقة لا يأبه بمن يكون هذا الشاب.

وكان رجلًا في نهاية الخمسينيات، وكان ضخمًا، وملامحه أيضًا ضخمة، وأنفه يعطي إيحاءً بأنه طيّب وبسيط، ولم يكن طيّبًا ولم يكن بسيطًا.

ما إن دخل عادل وخالد معه حتى قالت في صوت بارد كالثلج: تفعل هذا بها من أجل فتاة أصغر منها؟ بعد كل هذا العمر.. بعد أن تحملت كل أخطائك.

قال في لامبالاة: حقي! لا أريدها. ربنا حلَّل الطلاق.

كان خالد يشاهد المشهد في صمت، ولا يفهم بالضبط ماذا تنوي زوجته ولا ماذا تريد.

قالت في صوت ثلجي: إنك مقزِّز!

صاح في وجهها: احترمي نفسك يا هناء. إذا كان أهلك معرفوش يربوكي خليني أربيكي أنا!

قبل أن يتكلم خالد رفعت يدها، وهوت بها على وجه عادل في صفعة قوية وهي تصيح: تربيني يا واطي!

لأول وهلة أذهلته المفاجأة، ثم همَّ بأن يمسك بها فتدخّل خالد. وقف بينهما قائلًا: هذا يكفي. ربما من الأفضل أن ترحل.

قال الرجل وهو يحاول المقاومة: سأقتلك يا هناء سَتَرَيْن! س..

قاطعه خالد وهو يمسك بيديه: ارحل الآن.

دفع به إلى الباب، وفتحه بيده قائلًا: غدًا نتكلم، غدًا!

كانت تقف في مكانها وابتسامة الانتصار على وجهها.

دفع به خالد إلى الخارج، وأغلق الباب والرجل يركل الباب ويصرخ ويشتم ويسب.

نظر لها خالد في غضب وذهول قائلًا: لماذا فعلت هذا؟ لن يعود لها أبدًا.. أهذا ما تريدين؟

قالت في هدوء وهي تجلس على الكنبة: لن يعود إليها، ولم يكن سيعود إليها. وأشعر بارتياح غريب. هل تظن أن أسنانه قد تحطمت؟ كنت أتمنى أن أحطم بعض أسنانه.. آه، خالد أنت لا تعرف كم تمنيت أن أفعل هذا.. طوال عشرين عامًا وأنا أتمنى أن أفعل هذا.

- أن تصفعي رجلًا!

- هذا الرجل.

- وكنت تريدينني هنا لأحميك إذن حتى لا يضربك؟ أم لتلقنيني درسًا؟

قالت مسرعة: لا تقارن نفسك به؛ أنت لست مثله.

همس وهو يجلس بجانبها: آه هناء..تظنينني غبيًّا..طوال هذه الليلة وأنت تتخيلين نفسك مكان أختك، وتتصورين أنك ستقتلينني وتصفعينني وتحطمين مستقبلي.

نظرت إليه في تحدٍّ: أنا لا أفكر فيك طوال الوقت..عندي الكثير الذي يشغل بالي. أنا رئيسة القسم، هل نسيت؟

- ولكنك امرأة، وتشعرين بكل ما تشعر به المرأة..

- لا تقل هذا أبدًا.

- إنك امرأة؟!

- إنني ضعيفة!

- لم أقل إنك ضعيفة..قلت إنك تشعرين ..الشعور ليس بالضرورة ضعفًا..

ثم انفجر في الضحك فجأة: هل رأيت وجهه بعد أن صفعتِه! يا إلهي.. إنك مجنونة حقًّا!

- ماذا قلت؟

نظر إلى ساعته وقال: الخامسة صباحًا. هل تظنين أن أختك ستستيقظ قبل ساعة أو اثنتين؟

- خالد!

- وحشتيني.

همست في شوق: من المجنون إذن؟

- أنتِ وأنا بالطبع.

- خالد أنت لم تخلع حذاءك، من فضلك، اخلع حذاءك.

- لقد ظننت أننا تعدَّينا هذه المرحلة.

مع ضغط هناء وغيرها جاء سامح ولبنى ليصالحا أمهما ويعيداها إلى البيت. وكان موقفًا غريبًا ومحرجًا. ولم يكن يبدو أي تأثير على ليلى، وكأنها لم تعد تريدهما، ولم يكن يبدو أي تأثير على أولادها. كان موقفًا قبيحًا لم تحبه هناء، ولكنها كانت تشعر بالارتياح من أجل عودة ليلى إلى بيتها، ومن أجل عودة بيتها إليها ومن أجل استقلالها وحريتها.

ولم تسمع من عادل، ولم يكن يريد زوجته! ترك لها البيت ومصروفًا شهريًّا وغرق في حبه الجديد. تركها مع طفليها وخدمها والبواب والبيت الكبير والأثاث الغالي، ولم تكن تريد غيره، ولم تكن تأبه إلا بهذا الشعور بالذل والمهانة! الشعور القاتل بالعجز.

وكانت هناك أيام ما بعد النكبة، وأيام ما قبل النكبة. أمَّا أيام ما بعد النكبة بالنسبة إلى ليلى فقد بدأت تتخذ شكلًا جديدًا. وكانت ليلى قد فقدت كل شيء في لحظات، لحظات حرجة في حياتها. وأهم ما فقدته ليلى كان قيمتها كإنسانة، وليس فقط كامرأة، وبعد وقت قصير بدأت المهدئات تفقد تأثيرها عليها، وكان أولادها يتجنبونها تمامًا حتى لا يستمعوا إلى شكواها من الزمن ومن الغدر، وكأن العالم من حولها قد تخلَّى عنها. ولم يمر الكثير حتى بدأت تزور المسجد القريب من بيتها، وتحضر دروس الدين، وترتدي الحجاب، وتقضي الكثير من الوقت في قراءة القرآن وكتب التفسير. وذهبت إلى عمرة رمضان، ثم بعد أشهر إلى الحج.

عادت الحاجة ليلى والدين قد أكسبها الكثير. وكأنها ارتدت الرداء السحري الذي

يعطيها القوة. نظرة الجميع إليها قد تغيرت، أصبحت الحاجة ليلى فقيهة في الدين، وتقضي كل وقتها إمَّا في الجامع، وإما مع الأخوات، وإما في الصلاة وقراءة التفاسير. وكان الحجاب والحج قد غيَّرا نظرة الاحتقار التي كانت في عيون الجميع.

في غضون أربعة أشهر تحوَّلت ليلى إلى إنسان آخر، وكانت قد زهدت في الدنيا، وفي أولادها، وفي كل شيء ما عدا الدين.

وعندما زارتها هناء آخر مرة ودخلت حجرتها، رأت الكبرياء في عينيها كما لم ترها من قبل. ورأت الثقة والسلام والزهد. همست ليلى في هدوء: أنا لا أنظر إلى نفسي كامرأة الآن يا هناء، بل كروح في يد الله، وهو المنتقم الجبار.

نظرت إليها هناء في شيء من الشك، ولم تكن تعرف هل تعمُّق ليلى في الدين هو طريقتها لتجد نفسها وتثبت ذاتها، أم أنه رغبة حقيقية في التقرب إلى الله. لا، لم تعرف هناء يومًا ما حقيقة الحاجة ليلى. ولكن الحِج كان كفيلًا بأن يرفع من شأنها عند الجيران وفي العائلة وفي الشارع. حتى البواب أصبح أكثر طاعة لها. وكأن قوتها ترهبهم وتجبرهم على الطاعة. وأصبحت سيِّدة تقيَّة وأُمًّا وأختًا في الدين. وبالتدريج أصبحت تتقن دروس الدين وتعطيها، وكأن الدين أصبح سلاحًا في يد المرأة، مثله مثل التعليم والمال. وكان سلاحًا أقوى وأكثر تأثيرًا وكان يخيف الرجل ويكبحه!

حتى عادل. كان يأتي لزيارتها من حين إلى حين ليعطيها مصروف الأولاد. فتخبره الخادمة بأنها تصلي في حجرتها، فينتظر في ملل وشيء من عدم الارتياح، ولم يكن يخفي ازدراءه عنها، ولكنه يومًا عندما رآها وهي تخرج من حجرتها ومعها كتاب «الجلالين» في يدها وترتدي عباءة بيضاء وحجابًا أبيض ولا تنظر إليه بل تتمتم بكلمات لا يسمعها، أغلبها تسابيح..قال وهو يتكلَّف اللامبالاة ويبدو عليه التوتر: إوعي تكوني بتدعي عليه يا ليلى..ربنا مش حيستجيب لك!

ابتسمت في سخرية ابتسامة صفراء وقالت: وانت خايف ليه يا عادل؟

- يعني بتدعي عليه؟

همست وهي تنظر إليه: المنتقم الجبار.

صاح في عصبية: بعد كل اللي عملته علشانك بتدعي عليه.

لم تجب. نظرت إلى ساعتها، ثم قالت: عن إذنك عندي درس في الجامع، وبعدين

صلاة المغرب. البيت بيتك يا عادل.

بقلم الدين بدأت ليلى تكتب تاريخها لأول مرة وتقرِّر مصيرها. وكان قلمًا قويًّا، وتأثيره بعيد المدى!

- 6 -

قالت في قوة وهي تقوم من على المكتب: خلِّيه يدخل.

فتح الباب وهو يبتسم ابتسامة ممتلئة بالحماس والحياة، وقال: صباح الخير يا دكتورة.

قالت في جدِّية: صباح الخير يا خالد.

وكان صوتها دائمًا أكثر سلطة وتحديًا وهي جالسة إلى مكتبها، وكانت شبه إنسان آخَر حين تكون جالسة إلى مكتبها. ولم يكن يشعر بالراحة قط وهي جالسة إلى مكتبها، ولكنه أيضًا لم يكن يومًا صبورًا، وكان يريد أن يعطيها شيئًا. ويعطيه لها الآن!

جلس في شيء من الارتباك، ثم أخرج سلسلة ذهبية من جيبه بها مصحف ذهبي، وقال: كنت أفكر أننا.. تزوجنا دون أن أهديك بأي شيء؛ لذا..

مدَّ يده بالسلسلة، وقال في رقة: هذه هدية زواجنا يا دكتورة. هي بسيطة ولكن أرجو أن تعجبك.

أمسكت بالسلسلة منه، ونظرت إلى المصحف الكبير، وهزَّتها في كفها لتزن حجمها، ثم قالت: هذه لا بد أنها كلَّفتك مرتبك.

ابتسم ولم ينطق. تفحصته وهي لا تدري ماذا تفعل وماذا تقول. وكأن أحدًا قد ألقى بين يديها طفلًا لا تعرفه، ولا تدري ماذا تفعل به! كانت تشعر بحيرة غريبة. ثم أمسكت بالسلسلة وقالت: هل تعطيها لي رشوة؟

وكأنه يتوقع سؤالها..قال في هدوء: لا.

- تريد أن تنهي علاقتنا في هدوء؟

ضحك قائلًا: لا، لا أريد هذا. فقط أريد أن أعطيك هدية، ألم يُعْطِكِ أحد هدية من قبل؟

همست في شيء من اليأس: لا لم يعطني أحد هدية منذ زمن.. زمن طويل.

قام. أغلق الباب في بطء، ثم اقترب، وهمس في رقة: أريد أن أراها عليك..هل يمكنني أن أساعدك في ارتدائها؟

قالت في صرامة: لا.

- متى يمكنني أن أراك؟

قالت وكأنها اكتشفت لعبته: آه، فهمت.. خالد أنت تحاول أن تجعلني أحبك!

نظر إليها، ثم اتجه إلى الباب وفتحه، وقال: ليس عليَّ أن أحاول يا دكتورة.

- تظن أنني أحبك. هل هذا ما تظنه؟

- هل سأراك اليوم؟

- لم تجب عن سؤالي!

- لا أريد أن أجيب عنه.

- حسنًا. نعم ستراني اليوم، ولا تشترِ أي حلويات شرقية! لن آكل منها!

أمْرُ الهدية يقلقها، ويشعرها بعدم ارتياح غير مألوف. ماذا عليها أن تفعل لو أهداها أحد هدية. ما واجبها في هذه الحالة؟ أن تشتري له هدية؟

لا أحد يتذكر حتى عيد ميلادها. عادةً تقضي عيد ميلادها وهي جالسة على سريرها، ومعها غطاؤها الفاخر، وتشاهد فيلمًا عالميًّا قديمًا، وتشرب النعناع، وربما تأكل قطعة أو نصف قطعة من الجاتوه الفرنسي. وتنتظر الصباح. أحيانًا تتذكر أختها عيد ميلادها، وأحيانًا لا تتذكر، وفي أغلب الأحيان تجهز هي لهذا اليوم من أشهر، وتفكر في أي نوع من الجاتوه ستأكل هذا العام.. وأيَّ فيلم ستشاهد، وأيَّ غطاء تريد..

ثم يأتي هذا الرجل ليهديها مصحفًا ذهبيًّا في ثوان وبلا مقدمات..ماذا يتوقع؟

حيرة وعدم ارتياح. ولو اشترت له هدية فماذا تشتري إذن؟ اليوم قبل أن يأتي لزيارتها يجب أن تشتري له هدية.

لم يكن عندها وقت اليوم. غدًا إذن!

قالت عندما جاء..قالت في قلق: خالد، أنا آسفة لم يكن عندي وقت لشراء الهدية بعد. لسوف أشتريها غدًا، ربما.

نظر إليها في دهشة، فقالت مسرعة: لسوف أردُّها لك، لا تقلق. سوف أردُّها لك.

خرجت منه ضحكة، ثم قال: لا أريدك أن ترديها لي أبدًا! إياك أن ترديها لي! أبدًا أبدًا!

نظرت إليه في تحدٍّ: لماذا؟

قال في لامبالاة: من غير سبب.

- من عادتك أن تهدي النساء الذهب.

- نعم من عادتي أن أهدي زوجتي الذهب. أليس هذا هو المفروض؟ أن أهدي زوجتي الذهب؟

قالت في تحدٍّ: وزوجتك لا ترد الهدية!

- أبدًا!

- لأنها امرأة ولا تعمل وتعتمد عليك!

ابتسم قائلًا: إنها هدية، لماذا تفكرين فيها كلَّ هذا التفكير؟ هي هدية فقط، ما المشكلة؟! دكتورة، هل سنقضي كل الساعات المتبقية لنا نفكر في الحقوق والواجبات، والنساء، وحقوق المرأة، والغرض من الهدية؟!

لم تنطق، وكانت تفكر، طوال الليل وهي تفكر. تفكر في الهدية وكيف وَخَزَتْها وأفاقتها وكيف حركتها وآلمتها، وكيف..

ولم تكن غبية قط. بدأ الموقف يخرج عن سيطرتها! بدا وكأن قصتها مع خالد لم تعد تنسجها هي. ربما بدأ ينسجها هو الآن..ربما ينسجها غيرهما. ولكنها هي لا تسيطر على القصة! وليست الكاتبة للتاريخ!

وما دام قد أهداها هدية فهي لا تكتب التاريخ.

وكونها تأثرت كل هذا التأثير بالهدية فهي بالطبع لا تكتب التاريخ.

وهذه مرحلة جديدة في حياتها، ولا تدري ما إذا كانت تستسيغ هذا التجديد والابتكار الذي بدأه!

تنفست في فخر وهي تجلس إلى مكتبها الضخم، وتطلب الشاي والقهوة، وتشعر بالقوة تتصبب منها، والسيطرة حتى الثمالة، والقدرة على فعل أيِّ شيء وكلِّ شيء. وكانت سكرتيرتها تفهمها، وكانت سريعة البديهة ونشيطة، ولم تندم على اختيارها. كان الاختيار الأمثل. وكانت أنيقة وجادَّة في عملها.

هناك الكثير من العفن الذي يحتاج إلى أن تنزعه من على جدار هذه الجامعة. وحتى

الآن لا يوجد من يساعدها. حتى امتحانات دخول القسم بها وساطة ومحسوبية وتلاعب، وامتحانات الخروج لا تختلف كثيرًا. والكل «بيمشي أموره»! ولا أحد يشعر بالذنب من أجل قبول هدية غالية أو دعوة على العشاء في مركب نيلي، والاستمتاع بالرقص الشرقي..أو إجازة في الساحل الشمالي. وكأن المرتب الذي تعطيه الجامعة هو مجرد رمز من الدولة لتقديرها الكبير لجهود الأساتذة، وعلى كل أستاذ أن يكسب قوت يومه بطريقته الخاصة.

وهناك نوع من اللامبالاة والصبر المحزن على الظلم والإهانة.

ولكنها هنا الآن، وسوف تغيّر كلَّ شيء، وسوف تخلق الكثير من الأعداء، ولكنها ستغيّر كلَّ شيء. وأول قرار اتخذته أن تشرف هي شخصيًّا على امتحانات دخول القسم، حتى تتأكد من دخول من يستحق الدخول فقط. أمَّا عن البعثات، فمرة أخرى لديها اختيارات عدة.

مَنْ إذن؟

بعثة إلى أمريكا يستحقها مجتهد في عمله وطموح. وقد أوضح العميد أنه يريد أن يعطي البعثة لسلمى السليمي ابنة الدكتور الشهير الذي انتخب مؤخرًا مديرًا لنادي الجزيرة، وهو رجل خدوم..أي رجل ليس بأناني .. وخدوم تعني في مصر أنه على أتم الاستعداد لخدمة ومساعدة من لديه السلطة والمال، وتسهيل حياة الأغنياء وذوي النفوذ.

الوضع صعب بالنسبة لها، ما بين إرضاء العميد، وهو يطلب منها أن تخالف ضميرها، وما بين إغضابه، وهو الحاكم بأمر الله في الجامعة!

ستفكر في الأمر في هدوء.

نادت على سكرتيرتها، وتمدَّدت على الكرسي.

وكانت قد درَّبت سكرتيرتها على الطاعة، وعلى أن تنقل لها أيَّ خبر تسمعه، وأيَّ كلمة أو إشاعة، وأن تراقب كل الخطابات والبريد الإلكتروني للأساتذة الآخرين.

ولا تجد في هذا أيَّ مخالفة للضمير، بل هو حقها الشرعي أن تعرف أعداءها.

ومنذ ثلاثة أسابيع لم تر خالد. لم تكن تريد رؤيته، وعندما لم تتصل به أول أسبوع..اتصل بها، فقالت في رسمية إنها مشغولة، ولم يتصل من جديد. بدأ أمر خالد يقلقها ويحيرها وما دامت مشغولة بالكثير هذه الأيام فسوف تنتظر قبل أن تبحث أمر

خالد.

طلبت من رشا السكرتيرة أن تأتي. أمرتها أن تجلس، ثم قالت في قوة: ذهبتِ إلى رحلة الإسكندرية مع القسم كما طلبتُ منك؟

قالت رشا في حرفية وسرعة: كانت رحلة جميلة، وبدت الأجواء هادئة، ولم يتذمر أحد من أيّ قرار، وكل الأساتذة الذين ذهبوا كانوا يشكرون في حضرتك طوال الوقت، ويشيدون بالإنجازات التي حققها القسم في عهدك.

قالت في شيء من عدم الصبر: رشا! ماذا بك؟ أنت دائمًا تفهمينني..أنا لا أريد أن أسمع إطراء! أنت تعرفين جيّدًا ماذا أريد أن أسمع.

قالت رشا في بطء: الدكتور سامي كان يتكلم كثيرًا مع دكتورة مايسة، وكلما اقتربت توقف عن الكلام.

- ومايسة.. كانت تتكلم مع من؟

فكرت قليلًا، ثم قالت: مع الجميع، وتضحك مع الجميع.

قالت وهي تنظر لعين رشا: وخالد؟

فكرت رشا قليلًا، ثم قالت: تكلم مع دكتورة مايسة، ودكتور سامي، ومحمد صديقه، وإبراهيم، ومعظم الطلبة والمعيدين ما عدا سلمى.

- لا يحب سلمى.

- أبدًا.. كان يقضي معظم الوقت يسخر منها، وكانت غاضبة منه إلى أقصى درجة.

قالت وهي تتفحص رشا: تعتقدين أنه خطر!

- مَنْ؟ خالد؟

- نعم خالد.

فكرت من جديد ثم قالت: هو محبوب، وربما..لا أدري. بإمكانك بالطبع السيطرة عليه يا دكتورة وتحذيره لو أردت.

قالت في ضيق: بالطبع ..هذا يكفي. رشا..أريد دكتور محمد الآن.

كان دكتور محمد رجلًا محترمًا، وكانت تعجب به وبضميره. لم يزل خدومًا بالطبع،

ولكنه على الأقل يخدم الغني والفقير.

عندما دخل الدكتور محمد طلبت منه رأيه في التغييرات التي تحاول زرعها في القسم، فكان يطري عليها وعلى ضميرها. ثم طلبت منه رأيه في البعثة التي تملك المال لها. قال إنه يفضل ألَّا يتدخل. فقالت مسرعة: بل يجب أن تتدخل. أنا لا أريد إعطاءها لسلمى. أنا وأنت نعرف كيف تم تعيين سلمى، وأنا وأنت نريد لهذه البعثة أن تفيد الجامعة. أحتاج إليك بجانبي إذا كنت سأواجه العميد. أحتاج أصوات أساتذة مثلك.

قال وقد شعر بأنها تحاول أن تضيّق عليه الخناق: لا أريد أن أقف ضد رغبة العميد.

قالت في حماس: ولا أنا أيضًا..لا أريد هذا، ولكن بالطبع أنت لا تريد أن تقف ضد رغبتي أنا!

وكانت نبرتها تنم عن الكثير من التهديد والوعيد، وكانت مباشرة وقوية. وفهم قصدها، وبدأ في الاستسلام: ماذا تحتاجين مني؟

- أن تقترح اسمًا آخرَ، أذهب أنا إلى العميد بالاسم الآخر، وأقول إن القسم هو الذي اختاره، وإنني ليس لي حيلة في اختيار القسم.

- الديمقراطية الزائفة التي نعيشها كل يوم.. تريدينني كبش فداء؟!

قالت في حماس: أبدًا..أنا أريدك أن تعتمد على ضميرك فقط في الاختيار.

- ولا أستطيع أن أقول لا؟ هل أستطيع أن أرفض؟

قالت وهي تبتسم: بالطبع تستطيع أن ترفض، ولكنني سأحاربك على طول الخط، ولا أريد أن أخسر صديقًا.

قام قائلًا في ضيق: خالد عبد الرحمن.

نظرت إليه..أطالت نظرها إليه.. فاجأها!

قالت في صوت مبحوح: هل سيوافق؟

- وهل عنده اختيار؟ لو قرَّرت رئيسة القسم أن تبعثه إلى موزمبيق فسيذهب! ثم أمريكا جميلة، وهذه فرصة لم يكن يحلم بها!

قالت في قوة: اتفقنا إذن!

خرج الدكتور محمد. هوت إلى المقعد. سيرحل. هي ستجعله يرحل. هي. لماذا؟

فلتذهب البعثة إلى الجحيم! فلتأخذها سلمى أو غيرها. لماذا وافقت؟

وماذا كانت تتوقع؟ أن يبقى معها إلى الأبد؟ ماذا كانت تريد؟

لا..لن تفكر فيما تريد الآن. لن تفكر.

خرجت من مكتبها إلى دورة المياه.

وكان قسم اللغة الإنجليزية مميزًا في كل شيء، خاصَّةً في دورة المياه.

مشكلة مصر الأساسية بالنسبة لهناء هي دورات المياه التي تعكس عدم الولاء للسلطة! وتعكس أيضًا عجز السلطة واستهتار السلطة. أما دورة مياه قسم اللغة الإنجليزية فمختلفة، نظيفة، ورائحة الزهور، والزهور نفسها تحب البقاء بداخلها. المناديل الورقية موجودة دائمًا، والأنوار مضاءة، الحائط أبيض، وكل شيء منظم وتحت إشراف دقيق.

كانت دورة المياه في القسم دائمًا منذ عشرين عامًا مثالًا رائعًا لتكاتف قوى الشعب والمجهود الجماعي لأعضاء القسم!

والمشكلة الوحيدة هي أن دورة المياه كانت للاستعمال الشخصي، للأساتذة فقط، وتفتح بمفتاح خاص، وممنوع لأي طالب من العامة من تدنيسها أو إفسادها!

وكان على طلبة قسم اللغة الإنجليزية الذين يمتازون دائمًا عن كل طلبة الجامعة بالملابس الأنيقة والسيارات الفاخرة، أن يدخلوا دورات المياه في قسم الفلسفة أو أي قسم آخر!

وقرَّرت دكتورة هناء تغيير هذا الموقف المشين من أعضاء هيئة التدريس، وقرَّرت إعطاء كل طلاب قسم اللغة الإنجليزية مفتاحًا لدورة المياه! والكل يدعو لها ولإنجازاتها! ولكنها منعت بشدة دخول أي طالب من قسم آخر. وللتأكد من أن طلاب قسم اللغة الإنجليزية الجادين فقط هم من سيسمح لهم بالدخول، فقد أصدرت قرارًا بدخول الطلاب، بدءًا من السنة الثانية، أي بعد اجتياز السنة الأولي بنجاح. وكم كانت تتمنى إدخال كل الشعب المصري دورة المياه النظيفة، لولا أنها فقط رئيسة قسم اللغة الإنجليزية! ربما في المستقبل عندما تحصل على منصب أكثر قوة وسلطة تستطيع أن تفيد الجميع!

كل هذا دار بخاطرها وهي في طريقها إلى دورة المياه.

نظرت إلى نفسها في المرآة. إلى الهالات السوداء التي حول عينيها. إلى التجاعيد التي تشد خديها إلى فمها.. ماذا تتوقع؟

كانت ترتدي بلوفر أسود برقبة عالية، وجونلة إسكتلندية كاروهات، وشرابًا أسود وحذاءً بكعب عالٍ ومدبدب.

ابتسمت لنفسها. كانت ضئيلة أمامه. حتى بالكعب المدبدب. حجمًا فقط بالطبع! وليس مركزًا ولا أي شيء آخر.. هي عملاق أمامه! هي كل شيء.

صففت شعرها الأسود ذيل حصان، ووضعت بعض الكحل وأحمر الشفاه اللامع الشفاف. فمها صغير وشفتاها رفيعتان. وبشفتيها الرفيعتين ستبشره بالخبر العظيم والإنجاز الذي أنجزته والذي لا يقل عن إنجاز دورة المياه! أبدًا!

أغمضت عينيها، ثم خرجت من دورة المياه إلى حجرة المعيدين. ما إن دخلت حتى قام الجميع في وجل واحترام. كان هو أيضًا هناك. لم تنظر إليه، لا تستطيع.

كان يضحكها. كان ممتلئًا بالحياة.. كان قويًّا.. كان.. لماذا تتكلم عنه وكأنه ماضٍ وانتهى! ثم هذه البعثة.. لم يزل لديها شهور لتراه خلالها..

هي لم تزل جميلة. ترى الإعجاب في عينيه طوال الوقت. هي جميلة ورقيقة وقوية وساحرة!

جلست على مقعد. نظرت إلى سلمى. كانت ترتدي جيبة ضيقة قصيرة، وبلوزة بيضاء قصيرة. كانت سُرَّتها واضحة من البلوزة. عبس وجهها! كيف يسمح لها والداها أن تخرج من بيتها هكذا؟

قالت في فخر: كيف حالكم جميعًا؟

جاء الرد الحماسي: بخير. الله يخليك يا دكتورة.. شكرًا يا دكتورة.

قال محمد في حماس: رحلة الإسكندرية كانت جميلة.

ابتسم خالد في تهكم وهو ينظر إلى سلمى قائلًا: خاصَّةً مسابقة الرقص الشرقي.

عبس وجه سلمى ولم تنطق، فأكمل خالد: هناك تفوق غريب في الرقص الشرقي في الجامعة.

كانت تشعر بعدم ارتياحه لسلمى. وكانت سلمى تمثل كلَّ ما يكرهه، الغنى الفاحش،

التحرر، الملابس المبتذلة، كل ما يراه هو مقززًا.

ولم يكن يداري كرهه لها، ولم تكن سلمى تفهم لماذا!

قالت هناء وهي تقوم: أريدك في مكتبي يا خالد.

هزَّ رأسه بالإيجاب. كان يبدو متعبًا، متوترًا، لم تكن تعرف ماذا به.

شبك يديه أمامه وقال وهو يتكلَّف الاستسلام: أوامرك يا دكتورة.

وفي مكتبها نظرت إليه ثم همست: ماذا بك؟

قال في رسمية غريبة: كنت أذاكر طوال الليل. لم أنم جيدًا.

نظرت إليه من جديد. كانت تعرف أنه لا يذاكر. كان يعمل. يعطي دروسًا خصوصية طوال اليوم. دروسًا تبدأ أحيانًا في الواحدة صباحًا!

قالت في قوة: خالد، أنا أعرف كل شيء. لقد طلبت منك أن تتوقف عن الدروس الخصوصية. لو لم تفعل فسأحوِّلك للتحقيق.

جلس على المقعد، وقال في جفاء: ولو توقفتُ عن الدروس الخصوصية من سيصرف علي؟ البيت؟ الجامعة؟ الحكومة أم النظام العالمي الجديد؟

- تعترف إذن؟

- هذا شيء تافه بالنسبة لك يا دكتورة، ولكنه أكل عيشي، لا تحاربي أحدًا في أكل عيشه. وإلَّا..

- تهددني؟!

- عامَّةً المصريون يلحسون التراب من أجل لقمة العيش، وإذا أخذها أحد منهم فلن يترددوا في قتله أبدًا، وسوف يكونون شهداء لقمة العيش. لعبتك خطيرة، تحاولين أن تتدخلي في رزق الناس بطريقة لا أفهمها.

قالت في قوة: كيف تجرؤ على الكلام معي هكذا؟! لقد كنتُ أنوي أن أبشِّرك بخبر جميل.

نظر إليها في دهشة.

فقالت مسرعة: لقد اخترناك لبعثة أمريكا.

تفحَّص وجهها ثم قال: لماذا أنا؟

لم تنظر إليه. قالت في قوة: ألن تشكرني؟ اسمع يا خالد، توقف عن الدروس حتى لا تضطرني لاتخاذ إجراء ضدك، وأنت تعرف أنني سأفعل.

همس وهو يقترب منها: اسمعي يا دكتورة هناء.. لقد طلب مني الدكتور سامي للتو أن أساعده على التخلص منك، وقلت له إنني سأفكر في الأمر.. لا تسهلي الموقف عليَّ.. وتجعلي الاختيار يكون في غير صالحك.

ابتسمت في تهكم: اشربه يا خالد. أنت وهو لا شيء بالنسبة إليَّ. في ظرف أسبوعين لو لم تمتنع عن الدروس الخصوصية فسوف أعرضك للتحقيق. هل تريد هذه البعثة؟

قال في هدوء وهو يقوم: لا، لا أريدها.

- حتى تتفرغ للدروس الخصوصية! المقابلة انتهت يا خالد.

فتح الباب ليخرج فقالت في قوة: خالد.. لقد حذَّرتك من أن ترفع الكلفة بيننا أبدًا! هل تتذكر؟

لم يجب. خرج وأغلق الباب.

شعرت بغضب جامح لم تشعر به قط تجاه شخص. خوف من نفسها وغضب.

لم تتصل به ولم يتصل بها.

وكانت تعرف ماذا يريد.. أن يختلس منها تاريخها ويعيد كتابته! أن يأخذ القيادة.

وهذا هو المستحيل.

لم يعد يحب أن ينتظر في خشوع حتى تأذن له برؤيتها. لا، ولم يعد يحب أن يكون جزءًا هامشيًّا في حياتها! كان يريد الكثير ويطلب الكثير.

ولم يكن في وسعها العطاء..أبدًا.. لم تعتده ولم تحبه! العطاء ضد طبيعتها! ويريد أن ينزع العطاء منها عنوة، وهذا مستحيل.

استلقت على سريرها وهي تشتاق إليه..تكرهه..تحن إلى لمسته، وتكره غروره وعناده، وتعرف أن هذه هي النهاية. رفض البعثة إذن!

هناك قوانين يجب أن تطاع لا يمكن لكل فرد أن يعيش كما يريد. هناك قوانين أهملت سنوات، وهي هنا تمثل القانون والحكومة والدولة والمؤسسة. وهي لم تسئ إلى

المؤسسة. ولاؤها أولًا للمؤسسة!

لا، لم يتصل بها، ولم تتصل به، مع أنها كانت تريد توضيح الأمور له مرة أخيرة حتى لا يكون هناك لبس. كانت تريد أن توضح له أن الاتفاق كان على زواج سري فقط، وأن بإمكانه إلغاء الاتفاق لو أراد ولكن ما ليس بإمكانه، ما لن تسمح به هو أن يتحداها!

انتظرت بضعة أيام وعقلها يعمل ويخطط لتلقين خالد درسًا لا ينساه!

وحين ذهبت إلى ليلى في منزلها نظرت إلى أختها في شيء من الدهشة، شيء من التردد.

وكانت أختها تعطي درسًا في الدين في بيتها. وكانت واثقة هادئة، وكانت تجلس بجسدها الثقيل على المقعد، وتفرد ذراعيها، ولم تعد تأبه بالسمنة والرجيم والرجال. وكانت قائدة، وكان الكل معجبًا بها، وكانت تردد مأساتها، وكيف أنقذها الله ، وكيف مرَّت بهذا الاختبار المخيف، وكانت النساء ينظرن إليها والدموع تترقرق في عيونهن.

خرجن بعد مجلس الأخوات في وجل واحترام.

تنفست ليلى الصعداء، ثم نادت على البواب. مرة ومرتين. وعندما جاء لم تهدِّده كما كانت تفعل من قبل، ولم تصرخ في وجهه.

قالت في قوة: منّك لله يا عبده..خلتني أنبح صوتي ساعة..منّك لله.

وكأنها لسعته بعقرب سام قال عبده في خوف: يا حاجَّة، كنت بشتري حاجة، والله العظيم ما سمعتك.

- ربنا أعلم مني ومنك..لو كنت سمعتني منّك لله..

تنفس في بطء ثم قال في استسلام: طلباتك يا حاجة؟

وبدأت تطلب، وكان يستجيب.

وهناء تفتح عينيها في ذهول.

قالت ليلى وهي تجلس في ثقتها الجديدة: كيف حالك يا هناء؟.. ربنا رحمك من الرجالة وقرفهم. احمدي ربنا يا هناء.

بلعت ريقها وقالت والشعور الغريب يجد طريقه إلى حلقها: الحمد لله يا ليلى. كيف

حال الأولاد؟

قالت في لامبالاة: لا أعرف عنهم شيئًا. ربنا يعوضني عنهم.

قالت هناء: ليلى، لبنى بنت طيبة.

- تحب والدها. تزوره كل يوم، ولا أراها.

- من الطبيعي أن تحب والدها.

- نعم من الطبيعي.

همست هناء: تحتاج إليك؟

- كنت أحتاج إليها.

- سامح يحتاج إليكِ أكثر.. شكله مش عاجبني.

- منهم لله!

خرجت هناء وشعورها بالغربة يزداد كل يوم، ومعرفتها بمصر تقل يومًا عن يوم. وكتب الأدب قد تخاذلت كأطفال الشوارع، والفقر يعم كل شيء، والمرأة تبحث عن قوتها في اتجاه مختلف ودائمًا تبتكر، وتبحث وفي عالم يحكمه الرجال، كان على المرأة الابتكار كل يوم. وصارت هناء تفهم الآن لماذا ابتكرت شهرزاد قصة جديدة كل يوم، والمرأة الشرقية بارعة في الابتكار. كل يوم شيء جديد! ودور جديد! وكل حياتها محاطة برجل ومربوطة برجل ومعتمدة على رجل. ورقبتها في يد رجل.. إما أن يسحقها بين قدميه وإما أن يرفعها إلى أرفع المنازل، ويجلسها على العرش بجانبه. وكانت المرأة بين يديه.. يدي رجل.. إما أن يعتقها وإما أن يبقيها أسيرة إلى أبد العمر. والدين أصبح سلاحًا جديدًا في يدها، وقوة جديدة تشع من قلبها وتثير الرهبة في الرجل، وأحيانًا تكبحه، وأحيانًا أخرى ترفع منزلتها إلى منزلة الملوك. ما أَشْقَى المرأة وسط الفقر والفساد والإحباط والخوف. ما أشقاها! وكانت تسأم كل هذا. وتتمنى أن تنام في سلام. وأن تصحو لتجد شهرزاد قد توقفت عن الحكي.. والمرأة قد توقفت عن الابتكار.. و... وماذا أيضًا؟

والعمر لم يمر.. والرجال لم تمسك بزمام الأمور، والتاريخ يكتب بيد النساء، والمرأة تسير في ثقة وخطى ثابتة، ولا تعشق ولا تعطي ولا تخاف من جسد خائن و..

فلتنم في سلام. فلتنم في سلام كما كانت تنام منذ أربعين عامًا. وكأن خالدًا لم يولد بعد. وإرادتها قوية، وعمرها في يدها، وعملها المستمر ناجح ومثمر. وهي الآن قائدة في الجامعة. وما أجمل القيادة والسلطة!

نعم، فلتفكر في الإنجازات والطموحات والمستقبل الباهر.

هذه الأيام تشعر بضيق وقلة صبر. نعم. أصبحت عصبية أكثر من اللازم. كل ما في الأمر أنها تحتاج إلى بعض الوقت والتخطيط.

وكانت تسأم كل هذا، وتتمنى أن تنام في سلام.

- 7 -

طلبت من التاكسي أن ينتظرها حتى تعود، فلا هي تعرف الطريق إلى بيتها من حواري بولاق، ولا هي تريد أن تسير بسيارتها البيجو في هذه الشوارع المهدمة!

قالت للتاكسي في قوة: حتاخد كام؟

- اللي تجبيه يا مدام!

وكم كانت تكره كلمة مدام. قالت في حدة: قول كام!

- عشرين.

- نعم! إنت فاكرني أجنبية! نص ساعة وحرجع. مش حدفع غير عشرة.

لم تترك له الفرصة للنطق. خرجت من التاكسي. نظرت إلى العمارة شبه المهدَّمة في اشمئزاز، وبدأت تتسلق السلم الضيق المظلم الذي تفوح منه كل أنواع الروائح من البول إلى الثوم القديم والبصل والملوخية والعفن.

وضعت يدها على فمها وأنفها، ودقت جرس باب الشقة.

فتحت أمه. نظرت إليها لثوان، ثم قالت: السلام عليكم يا بنتي.

ابتسمت وهي تمد يدَّها: أنا الدكتورة هناء، أستاذة خالد.

قالت الأم في حماس وهي تدعوها للدخول: اتفضلي.. أهلًا وسهلًا.

نظرت حولها. كانت شقة بسيطة ونظيفة إلى أبعد الحدود، وما لفت نظرها هو أن كل النجف كان يلمع، وكأنه يصيح: صاحبتي ست بيت عظيمة، وكلنا نحبها!

خرجت شيماء من حجرتها، وقالت في حماس: دكتورة هناء؟ فاكراني؟

ابتسمت وهي تصافحها: طبعًا فاكراكِ.

وكانت هناء تصافحها دون أن تغلق يدها على أصابعها، تصافحها كالملكة التي ملَّت المصافحة، تعطيها يدها دون أن تبذل أي مجهود في تحريك أصابعها وكفها.

قالت شيماء مسرعة: خالد مش هنا. حكلمه على الموبايل، وحييجي على طول.

هزَّت رأسها بالإيجاب.

جلست الأم أمامها تنظر إليها لثوانٍ ثم قالت: إنت صغيرة جدًّا.

ابتسمت ولم تنطق.

قالت من جديد: والله العظيم إنت صغيرة خالص.. إنت رئيسة القسم؟

هزَّت رأسها بالإيجاب.

قالت الأم في حماس: خالد يعمل ليلًا ونهارًا. خالد طول عمره متفوق. تعرفي وهو صغير.. أبوه كان بيشتغل موظف في وزارة الداخلية، وكان بياخده معاه، وكان بيسمَّع القرآن وهو عنده خمس سنين. ربنا يحميه يا رب.. ربنا عوَّضني بيه عن كل حاجة. نفسي أشوفه دكتور.

قالت هناء: إن شاء الله قريب. أنا عارفة خالد كويس. هو يستاهل كل خير. كريم قوي.

قالت مسرعة وهي تمصمص شفتيها: ربنا يديه! كريم.. ده أكرم من الكرم! نفسي أفرح بيه.

نظرت إليها في دهشة، فقالت الأم في حماس: أخوه الصغير خلاص حيتجوز. نفسي أفرح بيه.

قالت وهي تبتسم: ربنا قادر على كل شيء.

- معك حق.

- يمكن تفرحي بيه قريب قوي.

- يا رب.

- يمكن النهارده!

نظرت إليها في دهشة، فضحكت قائلة: عندي له خبر سعيد. هل أخبرك؟ إننا اخترناه للبعثة.

نظرت إليها الأم في دهشة، ثم قالت: يسافر يعني؟ لا لا أريده أن يسافر..أقصد إذا كان لا بد أن يسافر..

قالت هناء وقد بدأت تضيق من كلام أمه المستمر عليه وكأنه فاكهة نادرة وماسة ثمينة!: فلننتظر حتى يأتي. هل هو قادم الآن؟

قالت شيماء مسرعة: خمس دقايق.

قامت أمه وقالت بحماس: حعملك عصير مانجه.

نظرت إلى حجرة الصالون، وغطاء الصالون الوردي المغسول بعناية، وإلى النافذة المفتوحة والستائر القطنية الزرقاء المكوية. خالد المسكين! أهذا ما يتوقعه في زوجته.. هذه العناية والغسيل والكي والطبخ وعصير المانجو الطبيعي؟! مسكين خالد.

نظرت حولها.. هذه شقته إذن.. هذه طفولته وحياته. كانت شقة صغيرة بالطبع. الصالة البيضاء مطلية بعناية، ولكن بطلاء بسيط رخيص. الشمس تدخل من كل الاتجاهات، وكل النوافذ مفتوحة، وعلى الحائط لوحات قرآنية كبيرة وصورة لوالده. الصالة هي أيضًا حجرة الطعام، وعلى يسار الصالة حجرة الجلوس بأبوابها الزجاجية. كانت تحب هذه الأبواب القديمة والدَّرفتين الزجاجيتين البيضاويتين. وكلما حاولت أم خالد فتح الباب كان يصدر صوتًا ينم عن التعب والتذمر! وكان بابًا قديمًا.. وأعجبها.

كان بسيطًا ونظيفًا وضيّقًا إلى أبعد الحدود، ولم تر حجرته، ولكنها تخيلتها.. سرير خشبي رخيص، ومكتب صغير.. وحجرة أمه وأخته لا بد أن تكون مليئة بالأشياء القديمة والجديدة!

هذا أنت إذن يا خالد.. من هذا البيت الصغير البسيط المليء بالآيات القرآنية والشمس والنوافذ.

كانت تستمع إلى صوت القرآن الآتي من المطبخ الذي تطبخ فيه أم خالد، وصوت القرآن الآتي من النوافذ المختلفة والأذان..

هنا خالد إذن.. من هنا، من جانب هذا الجامع القديم في آخر الشارع. هل كان سعيدًا هنا؟ هل هو سعيد الآن؟

ابتسمت في دفء لا تدري من أين يأتي. تعرفه أكثر الآن.. وتفهم ماذا يقصد عندما يقول إن عليه أن يذهب سريعًا ليصلي الفجر في الجامع كما كان يفعل دائمًا ومنذ الصغر. والجامع ليس ببعيد. ليس ببعيد على الإطلاق. وهذا الشارع لا ينام أبدًا.

توقعت أن تتأفف من المجاري الطافحة، والتراب، والتلوث الطاغي، والفقر، والقذارة،

والنفايات، والجهل، والسلّم المهدوم، والنساء الضعيفات المزعجات، والرجال الفظة، والطعام الدسم، والحلويات المسكرة!

ولم تفعل، لم تتأفف من شيء.

لماذا؟

لا تدري. فقط لم تتأفف من شيء.

دخل الصالون، نظر إليها، وابتسم في رقة. خفق قلبها فجأة. شعرت بطغيان مشاعرها تجاهه! لكَمْ تفتقد ابتسامته وضحكاته وسخريته وكل شيء!

همس وهو يغلق الباب الزجاجي في بطء: مفاجأة لم أتوقعها يا دكتورة! لو كنت ساذجًا لظننت أنك افتقدتني ولم تستطيعي عدم رؤيتي كل هذا الوقت. هل هذا سبب مجيئك؟ هل افتقدتني حقًّا؟

فتحت فمها، فقال مسرعًا في تهكم: لا، لا تنطقي، سوف تقولين لا، وسوف تحطمين قلبي كما تفعلين دائمًا!

ضحكت هذه المرة. فتحت أمه الباب، ووضعت العصير، وقالت في حماس: خالد ماقولتليش إن الدكتورة هناء صغيرة وجميلة كده! بس لازم تاكل شوية..

رفع حاجبيه في دهشة ونظر إلى هناء. التقت أعينهما ولم ينطق. خرجت أمه وأغلقت الباب. ساد الصمت برهة وهي تشرب عصير المانجو الطبيعي في هدوء، ثم قالت: منذ عرفتك زاد وزني خمسة كيلو.

ابتسم قائلًا: منذ عرفتك عرفت كيف ذبح محمد على المماليك في القلعة في ارتياح وسرعة، ثم نسي كل شيء عنهم بعد ذلك!

ساد الصمت، وكأن كلًّا منهما يكتشف الآخر، ثم قالت: نحن مختلفان كل الاختلاف في كل شيء.

قال في هدوء: في الكثير من الأشياء، وليس في كل شيء.

- أنت تحب النظام الذي يبنى على الفساد. تريد لسلمى وأمثالها أن يستأثروا بالبلد.

- القليل من الفساد مطلوب وشيء إنساني. لو طبقنا القوانين بحذافيرها فسوف ننسى آدميتنا. مثلنا في إشارة المرور؛ ألَا يسمح لك العسكري أحيانًا بأن تركني في الممنوع

مقابل جنيه؟ ولا حاجة.. الجنيه ده بيعيشه هو وأهله، وإنت يمكن تعبانة أو معاكي أولاد ومش قادرة تمشي. هو خدمك وإنت خدمتيه، والدولة ملهاش دعوة. كام مرة الواحد بيمشى من غير رخصة.. لو كل مرة الضابط بيوقفك من غير رخصة بيوديكي القسم كانت البلد وقفت. لو أنا معنديش واسطة علشان أعمل بطاقة كان زماني قاعد كل يوم في القسم. الواسطة بتسهل حاجات كتير.

- تدافع عن الفساد.. لماذا؟

- لأنني مصري ولا يوجد مصري لم يستسلم للفساد. لا يوجد مصري لم يدعُ رجلًا مهمًّا إلى الغداء، أو لم يتملق مديره، أو يعطِ العسكريَّ جنيهًا. هذه تربيتنا يا دكتورة.

- إذن ستصبح فاسدًا. ستعطي سلمى وأمثالها فرصًا أفضل.

- أحيانًا نحتاج إلى أن نضحي، ولكنني أبدًا لن أفقد إنسانيتي. الإنسانية أهمُّ من العدالة.

- أنت غريب! أحيانًا أشعر بأن عالمًا يفصل بيننا..هل نحن من بلدٍ واحدٍ؟

- لا أدري..من أي بلد أنت؟

- من أي بلد أنت؟

- مصر واسعة يا دكتورة، وتسعنا جميعًا.

فكرت برهة، ثم قالت في شيء من الألم: لماذا رفضت البعثة؟

نظر إليها..أطال نظره إليها، ثم قال: لا أستطيع أن أترك عائلتي وأنا عائلهم الوحيد.

قالت في شيء من الغيرة: ولكنْ مستقبلك! يجب أن تفكر فيه.

هز رأسه بالإيجاب وقال: نعم، مستقبلي. وهذا يذكرني بأنني متزوج، أو شبه متزوج..

همست في شوق: خالد..

قال في برود: نعم يا دكتورة؟

- اذهب إلى البعثة.

نظر إليها وقال في دهشة وغضب: لتتخلصي مني، أم لأصبح في مستواك العلمي والأدبي، أم لأتعلم معنى الديمقراطية التي تتقنينها.

قالت في فزع: لماذا تتكلم معي هكذا بكل هذه القسوة؟

صاح فجأة: لأننى سئمت هذه الحياة. عليك أن تعلني زواجنا أو ننفصل.

قالت في هدوء: وعندما أعلن زواجنا.. هل تظن أنه سينجح؟

- تريدينه أن ينجح؟

- تريده أنت أن ينجح!

- كفِّي عن الإجابة بأسئلة! تريدينه أنت أن ينجح؟

- لن ينجح.. لا يمكن، وأنت تعرف كل الأسباب.

قال في حماس وغضب: أبدًا.. لا يوجد مستحيل. كل الاختلافات وكل الضغوط لم توقفني يومًا . أنا دائمًا أحصل على ما أريد.

- فلتسأل نفسك إذن ماذا تريد قبل أن تقِّرر أيَّ شيء.

قال في بديهية فجأة: محمد يستحق هذه البعثة!

- هذه إنسانيتك تتكلم.

- محمد يستحقها يا دكتورة، ولكنني أعرف أنك ستضطرين إلى أن تعطيها لسلمى، ونصيحة العبد لله هي أن تعطيها لسلمى حتى تنقذي رقبتك من العميد. إذا كنت تريدين أن تبقي في مركزك.

أدار وجهه عنها حتى لا يضمها في قوة، ولم ينطق.

سارت في هدوء.. اقتربت منه وهمست: تتحداني طوال الوقت. علاقتنا معقَّدة وغريبة .. أحيانًا أشعر بالذنب تجاهك.. وأحيانًا أخاف منك، وفي أغلب الوقت أفكر فيك.

أدار وجهه عنها من جديد.

همست في ألم: أنت حزين لأنك تستشعرالنهاية.

قال في ثقة: لا يوجد نهاية. اتركي رئاسة القسم حتى أستطيع التعامل معك، واتركي الإشراف عليَّ، وانظري إليَّ كامرأة تنظر إلى رجل.

تنهدت وهمست من جديد: تريد تحطيمي. لماذا؟ لأنظر إليك بخشوع كأمك وأختك.. لأغسل لك ملابسك وأجهز لك الشاي؟ أنت تعرف أنني لن أفعل.

- أريدك زوجة فقط. لا يهم أجهَّزت الشاي أم لا. أريدك بجانبي، ولا أريدك أنت القائدة.

- أنا آسفة يا خالد.. لا أستطيع.. خُلقت للقيادة. وليس لأكل الحلويات الشرقية، والإفراط في العطاء والحب والكره وكل شيء!

- إنتِ أبشع قائدة رأيتها.. أنت مباشرة وصريحة وطاغية وتريدين العدالة، كل هذه مواصفات خطيرة..تؤدي إلى الانهيار. أنت لست مراوغة ولا هادئة، ولا تستمعين لأحد، وتعشقين التحدي!

نظرت إليه في غيظ: لا تستطيع التخلي عن أفكارك الشرقية، ولا تستطيع أن تراني ناجحة!

قبل أن ينطق قالت في تحدٍّ: خالد.. تريدني أن أعلن زواجنا.

قال في جفاء: لا.. بالطبع لا يمكن أن تعلني زواجك من صاحب الأفكار الشرقية!

نظرت إليه في تحدٍّ وغضب، ثم تركت الغرفة، واتجهت إلى الصالة، ومنها إلى باب الشقة، وهو وراءها، فتح لها الباب والغل يبدو على ملامحه. فنادتها أم خالد قائلة في احترام وحماس: يا دكتورة مش حتشربي حاجة تانية؟ والا تتغدي معانا؟

ابتسمت ابتسامة صفراء. نظرت إلى أخته وهي تجلس في الصالة في ملل، ثم لأمه، واتجهت لأمه لتقبلها قائلة: مع السلامة.. مرة تانية يا حماتي...

ثم همست لخالد وهي تخرج: حظ سعيد. ربنا معاك. لقد أعلنت زواجنا للتو! إياك أن تنطق!

أغلقت الباب والصمت يخيم على المكان. سمع الباب وصدى الباب وكأن قلبه أجوف وتمتم: يا ابنة العاهرة!

هوت أمه إلى المقعد في تردد وقالت لابنتها: شيماء.. هل هذه المرأة فقدت عقلها؟

بلع ريقه وأدار وجهه إلى أمه ولم ينطق.

قالت أمه في تلعثم: خالد.. هي تقول إنك زوجها.. هل سمعت.. هل قالت هذا يا شيماء؟

قالت شيماء في حماس وهي تقوم: نعم، أنا سمعتها.

قالت أمه في ضعف: هي اتجننت والا إيه!

قال في هدوء وهو يدخل حجرته: هي زوجتي. نعم هي زوجتي.

أغمض عينيه، وحاول أن يضع يديه على أذنيه لأنه يعرف ماذا سيحدث. بالطبع يعرف ماذا سيحدث.

سمع صرخة أمه. ثم شيماء تصرخ: ماما.. فوقي يا ماما.. ماما.. حكلم عبد الله.

فتحت أخته الباب وهو صامت يحاول استيعاب ما حدث، وكيف يشرح لهم كل شيء، وكيف سيتقبَّلُون هذا، وكيف سيكون هو لأول مرة في وضع المتهم، وكيف سيتعرض لأبشع أنواع الضغط النفسي والمعنوي، وكيف ستأخذ أخته القيادة لتنتقم منه وتتحدى سلطته، وكيف سيشعر بأنه سجين رغبات كل من حوله، وآراء كل من حوله.. وكيف ستشعر أمه بالضياع لأنه ضاع منها، لأنه طعنها. لأنه ولأنه.

ضربته الدكتورة هناء في مقتل.

والدكتورة تظن أن حقوق المرأة في مصر مهضومة، ماذا عن الرجل والتعذيب، وأبشع أنواع القهر النفسي الذي سيتعرض له الآن، والضغط والتهديد واللوم والمسئولية؟!

غطى وجهه بيديه لثوان. ثم قام في بطء ليتجه إلى أمه. كانت على السرير في حجرتها تبكي، وكأن ابنها قد مات للتو.

ما إن رأته حتى علا بكاؤها، وصاحت: إنت يا خالد؟! ليه تعمل كده في أمك؟! ليه يا بني.. تدخل الشيطان بنا ليه وتغضب أمك؟ إنت يا خالد؟!

وكان بإمكانه أن يحاول إقناعها بأن زواجه لا يغضب الله وأنَّه لم يتعمد إيلامها.. وكان يعرف أنها لن تفهم، وأنها تشعر بأنه جرحها جرحًا أكبر بكثير من جرح الزوج الذي يتزوج سرًّا من أخرى.

أمسك بيدها، قبَّلها وهمس: معلهش.. الظروف.

قالت وهي تبكي وتمسح دموعها: مش حسامحك إلاَّ لما تطلَّقها.. طلَّقها يا بني ربنا يهديك.

مرة أخرى كان يمكنه أن يسأل: لماذا؟ وكان يعرف الإجابة، لأنها أكبر منه، لأنها

ست صايعة.. لأنها من وسط مختلف.. لأنها.. ولأنها..

ولم لا؟! هي لم تعد تريده، لماذا يحارب من أجل امرأة لم تحارب من أجله؟ لماذا؟

لم يعتد الهزيمة، ولم يعتد الضعف، ولم يعتد الاحتياج إلى امرأة كل هذا الاحتياج.

ربما من الأفضل أن يطلقها ويتزوج صفاء أو غيرها ويعمل وينجب أطفالًا و..

يريد زوجة مطيعة لا تتحداه أبدًا.. لا بد ألَّا يكون عندها آراء قوية يصعب تغييرها! أبدًا.. ما أقبح المرأة صاحبة الهدف والرأي! تقطع الرجل كالسكين الكهربائي! لا، لا يريد آراء!

قالت والدته من جديد: طلقها علشان أرضى عنك قبل ما اموت!

قال في لا شعور: لا أستطيع!

- تحبها كالصبيان! كنت أظنني قد أنجبت رجلًا! رجلًا وليس صبيًّا! ماذا حلَّ بك! عاملة لك عمل! يا لهوي.. عاملة لك عمل.. دي لا منظر ولا شكل. بتحب فيها إيه! إيه اللي جرى لك يا ابني.. يا وكستي في عيالي.. يا رب ياخدني قبل ما اشوفك بريالة ورا ست زي دي.

لم ينطق. سار في صمت إلى حجرته، توقف عند الباب وهمس: إرتاحي يا ماما.

ما إن خرج حتى قالت لأخته: يا لهوي يا شيماء شايفة عينيه واقفة ازاي.. ساحره له! ياللا يا بنتي.. ياللا عند عمتك نشوف له حل.. له أهل وله ناس يقفوا له، والسحر ده لازم نبطله قبل ما تشده وراها زي الكلب... يا وكستي في عيالي!

قالت الأم في رجاء: محمد يا بني ربنا يسترها معاك اقنعه ده صاحبك، واحترنا فيه، كل الناس مش قادرة عليه!

- متخفيش يا حاجة، إن شاء الله حقنعه!

دخل محمد حجرته وقال وكأنه يراه: تبدو شاحبًا!! بالطبع الحاجة مش بتطبخ لك بعد المصيبة اللي عملتها.

ابتسم خالد ولم ينطق.

- تتجوّز.. يا مجنون.. وتقول لأمك؟

قال في غضب: هي أخبرتها.

- هي.. الدكتورة هناء؟!

انفجر محمد في الضحك قائلًا: هي؟ لماذا؟ هل تكرهك كل هذا الكره؟!

- كيد الستات لا يقوى رجل عليه! أريد أن أمزقها إربًا! أن أصفعها عدة صفعات.. محمد..

ساد الصمت برهة ثم قال محمد: لم تزل تريدها.

- و لن أتركها أبدًا.

- تعاند نفسك؟

- ربما.

- لماذا؟

- لا أدري.

- تحبها كل هذا الحب.

أغمض عينيه، ثم قال: هل تعتقد أن الوقت قد حان لأن ننتهي من رئيسة القسم!

قال محمد في فزع: إياك يا خالد.. لن تسامحك أبدًا!

لم ينطق.

- خالد.. بماذا تفكر؟ خالد..

- نعم؟

- أخاف عليك.. ماذا ستفعل؟ لماذا لا تنسى الدكتورة هناء.. هذا ما تريده أمك وتريده الدكتورة هناء ويريده كل الناس. انسها ثم تزوج صفاء كما كنت تنوي أو أي امرأة أخرى.

لم ينطق.

- خالد.. لماذا لا تتكلم؟ تقف في وجه العالم من أجل امرأة لا تريدك؟

لم ينطق.

- هل ستتركها؟

قال فجأة: عندي الكثير من العمل اليوم. الكثير. بدأت أمل الدروس الخصوصية

والمجاملات والابتسامات والضغط من كل الناس وكل شيء. ترى متى ينتهي كل هذا؟

- أنت مرهق إذن؟

- والدتي لا تريد الكلام معي، تضغط عليَّ حتى الموت، وأختى تنتقم مني أشد انتقام..هل أخطأت في حق أختي يومًا؟ كنت أخاف عليها، كنت أريدها أن تكون أفضل فتاة.. وأخي يخاف من انقطاع الهدايا والمعونة عنه وعن خطيبته، والدكتورة قررت أنها تريد مركزها وتخاف عليه، وأنا هنا وسط كل هذا..لو كنت مكاني فماذا كنت ستفعل؟

- اذهب إلى عاهرة وادفن فيها همومك!

- محمد!

- كنت أمزح فقط! لم تخبرني بعد ما شكل الدكتورة هناء..هل هي جميلة؟ ولا تُحِبْ بربَّما!

الذكريات غريبة وطريفة! وكان كل ما يتذكره هو لحظات من مقابلاتهما المتوترة السريعة. لحظات ضحكا معًا. لحظات تكلَّمت ولم تصمت قط..حتى اضطر إلى أن يرحل. كان يتذكر كلماتها الكثيرة والحديث معها الذي كان هو فيه مستمعًا صبورًا. وكان يتذكر كيف ترفع حاجبيها عندما تحكي قصة مثيرة، وكان يتذكر حاجبيها السميكين الأسودين ونظارتها الرقيقة المحددة بدقة. وكان يتذكر كيف تدفن رأسها في الوسادة بعد أن يمارس الحب معها وكأنها تخجل منه ومن نفسها وضعفها وخوفها. وكان يشعر بكم هي مثقلة بصراعات بداخلها وبشعور بالتوتُّر. وكانت دائمًا تدفن رأسها في الوسادة ثم تفتح كفها وكأنها تنتظر أن يأخذ بيدها. وكان دائمًا يعطيها كفه ويغلقه على كفها لدقائق دون كلمة. ولم يكن يعرف أكانت تشعر بالذنب من أجل هذا الزواج الغريب؟ أكانت تشعر بالذنب لأنها تعطي نفسها له وتستسلم لمشاعرها الطاغية وتحبه كالطاغية العنيفة الرقيقة الخائفة؟ أم كانت تستشعر النهاية كل مرة وتغمض عينيها عنها؟

كان يتذكر اللحظات وكان يستمر في حياته في رتابة. وكانت أمه قد أقسمت بكل غال أن تعيد ابنها. واستعملت كل الأسلحة المشروعة وغير المشروعة لهذا الغرض. حتى كرهها الشديد لصفاء تحوَّل إلى حب طاغ. وكانت تتكلم مع صفاء كل يوم وتمنيها وتغازلها، وكأنها هي من تنوي الزواج منها. وكان يتوقع أن تتصل به صفاء، وأن

تحاول رؤيته، وكان يشعر بعصبية شديدة هذه الأيام، ولم يكن يريد جرح صفاء، ولا الاستسلام للنهاية التي اختارتها أمه وأخته والدكتورة هناء. وكان رجلًا شرقيًّا كما قالت الدكتورة هناء.

كان رجلًا شرقيًّا يكتب تاريخه غيره. ويكتب قصته غيره. ويكتب هزيمته غيره. ويكتب عذابه غيره. ويتكلم عن مشاعره وطغيانه ونفاقه وقلقه غيره.

كان عليه أن يستشير كل من حوله.

كان عليه أن يعطي توكيلًا للنساء في حياته للتصرف فيها كما يشأن. وتوكيلًا آخر للرجال في حياته لتحطيمها كما يشاءون.

كان رجلًا شرقيًّا إذن..

هذا ما قالته عنه.

كان يتوقع أن تخدمه زوجته ويخدم هو الجميع.

ابتسم في يأس. تريد أن تلقي به في سلة المهملات الآن! الدكتورة هناء. كانت ساذجة. وكانت سذاجتها مثيرة للرثاء والضحك والغيظ.

سمع جرس الهاتف المحمول. نظر إلى رقم الهاتف، وكان يعرف أنها صفاء. لم يُجب. أغلق الهاتف، ونام في انتظار الغد.

ابتسم لنفسه في أسى وهو يخرج أوراقًا من مكتبه القديم ويتجه إلى باب الشقة، وإلى الدرس الخصوصي الأول اليوم.

لاحت بذاكرته ليالٍ قضاها معها. وما كان يفتقده حقًّا وسط الغضب الجامح الذي يشعر به هو لحظات نشوتها وهي بين ذراعيه.

وكانت في هذه اللحظات تشبه الإوز الذي يفقد ريشه من رياح ثقيلة.. ويتناثر الريش في كل مكان.

والدكتورة هناء..تلملم شظايا عقلها المتناثرة، وتتنفس في بطء، وتهمس له: خالد..ماذا تفعل بي يا خالد؟

وكل مرة يهمس: ماذا أفعل بك؟

- لا أدري..

وكان هو يعرف.. ويرى الاستسلام والعجز عن التفكير وعن الاعتراض وعن التحدي.

كانت في لحظاتٍ امرأة تحت سيطرته تمامًا.. لحظات لا تدوم طويلًا يكون هو المسيطر والحاكم والطاغية!

وكانت تعطيه اللحظات في استسلام، وكانت اللحظات هي ما يفتقده الآن.

وعندما كانت تترك العنان لجسدها يرتجف وينبض بالحياة من حوله كانت امرأته هو، هو فقط. وفي أغلب الأحيان كان يرى دكتورة هناء بين الكثير من الرجال..تقرِّر كلَّ شيء، وتتكلم في ثقة، وتحدد أركان عمرها وعلاقاتها.

والرجال عادةً يشعرون إمَّا بالوجل وإما بعدم الارتياح في وجودها. وشخصيتها الطاغية تبدو على عينيها الحادتين وكلماتها الواثقة ونبرة صوتها.

ولم تكن تخشى الرجال، ولم تكن تخشى النساء ولم تكن تخشى شيئًا!

وممَّا سمعه عن عائلتها بدا له أنها كانت مدلَّلة إلى أقصى حد! وأن ولادتها كانت حادثًا غير مقصود من والديها في سن متقدِّمة، والفرق بينها وبين أخواتها يتعدى السنوات العشر. وبدا له أن أمها كانت سيدة أرستقراطية صارمة إلى أبعد الحدود، تحترم العادات والتقاليد ودور المرأة في رعاية الأولاد.. وأن أباها كان حنونًا، ويسكب حنانه عليها ويشجعها، ويزرع فيها الثقة والطموح!

وأبوها كان المشكلة بالنسبة له! أبوها هو من تسبب في كل هذا الخلط الذي تعيشه الدكتورة هناء.

وماذا سيفعل مع الدكتورة هناء؟

يفضحها ويطلقها ويحطمها؟

تستحق هذا وأكثر!

تظن أن بمقدورها أن تتخلص منه كما تخلصت من عذريتها في لامبالاة ودون تردد!

ماذا يريد إذن؟

أن يراها تسحق أمامه! تركع أمامه وتطلب المغفرة! أن يراها ترجوه في خوف وتتمناه في شوق!

ولن يستسلم لحكمها!

تريد أن تتجاهله!

لا بأس.. فلتتجاهله. وسوف يتجاهلها! وليصبر، وكان دومًا صبورًا. ليصبر حتى تعود إليه في خزي وهزيمة! وربما عليه أن يعمل في صمت من أجل هذا الغرض!

ورئاسة القسم؟! ليفكر في هدوء.. هناك الكثير الذي يقدر عليه.

وكان دومًا صبورًا. لن يتصرف في تهور وغباء.

هناك أشياء كثيرة يمكن للمرأة أن تفعلها حتى تنسى الرجل.

حسنًا..ربما أحيانًا تفتقده. ولكنها عاشت عمرًا بدونه، وستعيش عمرًا بدونه.

تحتاج إلى قطة وكتاب جيد وموسيقى كلاسيكية وكمبيوتر سريع.

الموسيقى عندها والكمبيوتر والكتاب. الآن تحتاج إلى القطة.

اشترت قطة سمينة وكبيرة، وكانت تدلِّلها وكأنها طفلها، وتتكلم معها، وتفرح لو نامت في سريرها.

وعادت حياتها إلى الرتابة القديمة والزبادي والخبز الصحي والسلاطة والمشي والرياضة والملل والوحدة والأيام الطويلة.

وعادت إلى القراءة والأبحاث والجلوس على مكتبها لساعات لتحليل الكلمات، والإشارة إلى العلماء، والكلام والكتابة والنظريات، والحياة المجرَّدة من كل عشق وحزن وخوف.

عادت إلى التركيز في شيء واحد، والاعتماد على شيء واحد. التركيز على نفسها، والاعتماد على نفسها.

وكان هناك شعور جديد يتسرَّب إلى نفسها، يدغدغها، يسقط في حلقها كنقطة المياه الباردة فيفيقها ويخيفها ويغمرها. ولم تكن تعرف بالضبط ما هو هذا الشعور.

هي سعيدة لأن العلاقة انتهت. ولن تطلب منه الطلاق.. سوف يطلقها وهي تعرف. وعندما تراه في الجامعة سوف تنظر إليه كأحد رعاياها وليس أكثر. وسوف تتوقع منه الولاء والطاعة لا أكثر.

وكان هذا الشعور الذي يتسرب إلى عروقها كبرودة الثلج جديدًا عليها. حاولت أن تعرفه. أن تبحث عنه في الروايات التي تدرّسها ولم تجده. كانت تخافه وكانت تحبه. كانت تخاف الشعور وتحب الشعور. هل هو غَضَبٌ؟ غَيْظٌ؟ هو شعور جامح وبطيء. استسلام.. اشتياق.. خوف.. حزن..

لا بأس. أطلقت على قطتها اسم «بسبوسة».

لم تزل ليلى تكتب تاريخها أيضًا بعد أن أصبح قدرها بين يديها، والدين شغلها الشاغل، وكانت أيامها مشحونة بالأحداث من لقاءات مع الأخوات، وذهاب إلى الجامع وأعمال خيرية، ونصائح وفتاوى تعطيها. ويوم السبت وهي تجلس في حجرتها وتمسك بكتب التفسير وتنتظر موعد صلاة الفجر في حجرتها..شعرت بباب الغرفة يفتح في بطء.

وكانت قلقة على هناء وما تمر به هناء، وتعرف ضعف المرأة عندما تتحكم فيها طبيعتها، وبدأت تشك في العلاقة بين هناء وخالد.

أعوذ بالله! ربنا يهديها الدكتورة هناء.

شعرت بالباب يفتح في بطء، وتمنت ألَّا ترى أحد أولادها. وكان ما يثير الرثاء في هذا البيت هو أنها تتجنب رؤية أولادها حتى لا تتذكر خزيهم وضعفهم وفواحشهم الكثيرة تجاهها.

وكانت تدعو الله ألا يكون من فتح الباب أحد أولادها.

وكان ابنها! كان سامح. لم تنظر إليه. لم تنظر إليه منذ أشهر مضت، عندما تركها شهرًا كالكم المهمل عند أختها ولم يسأل عنها ولو مرة!

ولن تنظر إليه الآن.

قالت في جفاء وهي تجلس على سجادة الصلاة: عايز إيه؟ عايز فلوس؟ روح خد من أبوك، أنا ممعييش.

جلس على السرير وقال في هدوء: ماما.. بصي عليَّ!

أدارت وجهها.

فصاح في عصبية: انظري إليَّ!

ارتجفت للحظات. أغمضت عينيها في ألم وقالت: لا تجعلني أغضب عليك أكثر من هذا. اخرج من هنا يا سامح.

قال في هستيرية وهو يهتز: انظري إليَّ.. سيبي اللي في إيدك وبصي عليَّ.. بصي عليَّ!

تمتمت بكلمات في هدوء وقالت: استغفر ربنا... «ولا تنهرهما».. تذكر.. «ولا تنهرهما»..

قال في هستيرية من جديد: بصي عليَّ! بصي عليَّ! يا حاجة!

أدارت عينيها ناحيته. التقت أعينهما.. ولم تر ابنها.

شبح ربما.

ولم يكن ابنها.

الهالات السوداء تحت عينيه، جسده الهزيل، ضعفه، وكأنه كان في معتقل لسنوات ولم يخرج بعد.

شعرت بألم طاغ لم تشعر به قط. ألمٍ من نوع جديد. مختلف. لم يكن شعورًا بالعجز هذه المرة ولا بالهزيمة.. كان شعورًا جديدًا من الصعب وصفه! شعورًا بالذل والخزي والموت.

وكانت الهزيمة هذه المرة أقوى من الهزيمة الأولى! وكانت تُهزم كل يوم!

قال وهو يجهش في بكاء يائس: أنا بموت يا ماما.. إمبارح رحت في غيبوبة ساعة! جرعة زيادة.. واترفدت من الجامعة.. أنا خلاص بموت. شايفة ابنك بيموت وقاعدة على سجادة الصلاة!

رأت دموعه على الأرض.. رأتها أمامها وشعور بالغضب والهزيمة والذنب والحزن المزمن يسيطر عليها.

قامت من على سجادة الصلاة.. جلست على السرير أمامه وهمست: منذ متى؟

صاح من جديد: منذ متى! هل تسألين منذ متى؟ منذ زمن.. زمن بعيد، عامين، ثلاثة، لا أدري.

قالت في شبه هستيريا: سامح.. لا يا سامح حتعيش يا بني. حتتعالج.

قال في لامبالاة: لا أدري إذا كنت أريد هذا!

تمتمت ودموعها تنهمر: والنبي يا رب.. والنبي يا رب.. بلاش ابني.. بلاش ابني.. والنبي يا رب.

قامت في قوة، وقالت في صوت مبحوح: دلوقتي حنروح المستشفى. دلوقتي.

قال في صبيانية وغيرة: والأخوات والمجالس! والأعمال الخيرية.

- الآن.. لا تتكلم. لا تنطق. ربنا معانا. ربنا عارف.

بدأت تتحرك بسرعة. وضعت عباءة سوداء عليها، ثم أمسكت بيده وجرَّته قائلة: الآن..الآن.

- لماذا؟ لماذا الآن؟

همست في يأس وهستيرية: والنبي يا رب، بلاش ابني..

دفعت به بكل قوتها خارج الحجرة، وأمسكت بيده في عنف وقوة، وجرته خارج البيت إلى سيارتها.

عندما علمت هناء أن ابن أختها يعالج في مستشفى للإدمان.. تنفست الصعداء، والبرودة تدغدغ حلقها، وقطتها الجميلة تنام بين ذراعيها، والدموع أبدًا لا تتساقط.

بدأت الحرب تشتعل من حولها، وهي لا تخشى الحروب. هي تتوقعها وأحيانًا تهواها.

وكانت تعرف مَنْ أعداؤها، وتتوخى الحذر من الجميع، وخاصَّةً خالد، ولكنها أيضًا تعرف أنه لن يجرؤ على إيذائها أو إذاعة خبر زواجهما، حتى ولو عرفت أمه! فلن يعرف أحد. فالاتفاق الصامت ينص على أن خالدًا سيصمت، ولو نطق فستدمره، وهي قادرة على ذلك. وهذا أكل عيشه وهو لن ينطق.

لم تكن مستعدة للاجتماع اليوم. لم تنم جيِّدًا لأيام.

ولم يكن اجتماعًا سهلًا. تكلَّمت عن إنجازات القسم، وكيف استطاعت أن ترفع ميزانية الجامعة في هذا العام إلى أكثر مما كانت منذ أعوام. وكيف تحاول الآن أن تبعث بأكثر من مدرس مساعد إلى بعثات في الخارج، وكيف اعتدل الميزان وانتصرت المؤسسة على الأفراد! وكيف علينا أن نعمل جميعًا من أجل خدمة الوطن والحكومة والمؤسسة!

فتحت دكتورة مايسة فمها لتنطق، فأشارت إليها هناء بالصمت، وأكملت في فخر: أنجزت الكثير وسأنجز الكثير. وسيصبح أهم أهدافنا البحث العلمي.

ابتسم سامي في تهكم، ولم ينطق.

قالت مايسة في حنق: والإعارات! لا يمكنك أن تستمري في هذا القانون الغريب..هذا قانون غير قوانين الجامعة.

قالت في ضيق، ولا شيء يثير أعصابها أكثر من أن يعارضها أحد، أو يتحداها على الملأ: لا إعارات. لا هذا العام ولا العام المقبل. نحتاج لكل أستاذ ولكل باحث.

كان يجلس في آخر الحجرة ولا ينظر إليها، والغضب فقط يسيطر على عينيه.

قالت في قوة: أرجو أن نركز في عملنا، ولا نفتعل المشاكل. هناك قوانين يجب أن تطاع.

ابتسم سامي في تهكم قائلًا: وأنت من يضع القوانين.. فيه عميد، وفيه رئيس جامعة، وده كلام فارغ اللي إنتِ بتقوليه ده!

وقفت في فزع وسط تمتمة كل الجالسين.

أثارت انتباه خالد. ابتسم وهو ينظر إليها.. وينتظر رد فعلها ويتوقعه!

صاحت في قوة: دكتور سامي..هذا اجتماع وليس سوقًا! أرجو أن تخرج في هدوء.

لم ينطق. حاول الحاضرون تهدئته، وقالت مايسة في ضيق: يا هناء كده ماينفعش. إحنا مش موافقين.

- لم أطلب رأيكم. أنا رئيسة القسم، وأنا أقرر. لقد عُيّنت في هذا المنصب لأتخذ القرار بنفسي.

قالت مايسة في تحدٍّ وهي تتفحصها بعينيها كامرأة وليس كأستاذة: كل واحد وله ريس!

قالت في تحدٍّ وهي تلوح بيدها: روحي اشتكي لو عايزة! ده اللي عندي.

ساد الصمت برهة، ومايسة قد أمسكت بالتليفون المحمول، وبدأت تضرب به على الطاولة في عصبية. ولم يكن هناك صوت سوى صوت التليفون المحمول الذي تضرب به مايسة على الطاولة في عصبية وكأنها تتخيله هناء!

قالت هناء في صرامة: كفاية. البطارية زمانها اتكسرت يا مايسة! أكيد اتكسرت، وده تليفون غالي قوي!

ثم أكملت في قوة، ولكنه كان يرى بشرتها تزداد احمرارًا: كنت أعتقد أنكم ستهنئونني على عملي المستمر، وعلى كل ما فعلته لهذا القسم، ولم أتوقع كل هذا الجحود!

قالت مايسة وهي تقوم: الرزق بتاع ربنا يا هناء!

ثم خرجت، وتركت الباب مفتوحًا، وخرج وراءها سامي.

كان اجتماعًا صعبًا، وحاولت أن تكون طبيعية بقية الاجتماع، ولكن عقلها كان يزن فرصة عقاب سامي ومايسة. ستحولهما للتحقيق. نعم.. ثم ماذا؟ عليها أن تتكلم مع العميد.. وموضوع البعثة! ستفكر في هدوء. تحتاج إلى مساعدة أيضًا.

بعد انتهاء الاجتماع قالت في قوة: خالد.. أريدك.

توقف مكانه ونظر إليها في برود.

أخذت تفرك أصابعها في عصبية كما تفعل هذه الأيام، وكلمات مايسة وعادل تدوي في أذنيها. وشعور بالخطر يطغى عليها. كان ينتظر في صمت، وكانت المرة الأولى التي تنظر إليه وجهًا لوجه منذ شهرين. تحاشت عينيه، وركزت على تفاحة آدم القوية وقميصه الكاروهات، وقالت في ميكانيكية: هل ترى هؤلاء السفهاء؟

نظر إلى وجهها، تحاشت عينيه من جديد، تفحص وجهها، ثم قال في لامبالاة: تبدين متعبة.

قالت في تهكم: تقلق عليَّ! وتعرف أنني أحتاج إلى مساعدتك بالطبع.

همس في تحدٍّ: وهل تحتاجينها حقًّا يا دكتورة؟

قالت في تلقائية: نعم.

ابتسم قائلًا: أعطيني سببًا واحدًا يجعلني أساعدك.

قالت في عصبية: أعطني أنت سببًا واحدًا يجعلك لا تساعدني. هل أسأتُ لك يومًا؟ هل ظلمتك؟ هل استغللتك؟

ابتسم قائلًا: أبدًا. كنتِ نِعْمَ الزوجة.

فتحت فمها في فزع: خالد إيَّاك أن تنطق بهذه الكلمة. لقد انتهى كل شيء.

- حسنًا ما دام كل شيء قد انتهى هل يمكنني الانصراف؟

- هل ستساعدني؟

- ساعدي نفسك يا دكتورة.

قالت في ازدراء: ستقف في صفهم هم! في صف الفساد والرشاوى والغشّ؟ لا بأس من تكون أنت أصلًا!

فتح الباب والغضب يبدو على وجهه، وترك مكتبها ورغبة جامحة في أن يصفعها ويهزَّها بقوة، تطغى عليه.

ستذهب إلى العميد. لن تبقى صامتة. ستهاجمهم قبل أن يهاجموها.

ستحكي له عن إنجازاتها ونجاحاتها، وغيرة مايسة، وكره سامي، واستياء المعيدين، والرغبة في الاتجار بالتعليم وبأهل العلم.

وسوف يفهم ويقدر الوفاء والجهد، والعمل المتواصل، وحبها لمصر وللحكومة والجامعة وكل المؤسسات التي تملكها الدولة، ورغبتها في العمل من خلال المؤسسة، وليس من خلال أيِّ تنظيم آخر خارج المؤسسة، وليس من خلال أفراد تربطهم علاقة فقر أو دين أو يأس أو حب أو كره. ستعمل من أجل مصر.

وسوف تخبره ماذا حققت وماذا ستحقق. وسوف يفتخر بالإنجازات والضمير اليقظ والعقل الذكي. وسوف تكون مثالًا مشرِّفًا لامرأة مصرية ضحَّت بكل شيء من أجل العلم، حتى بسعادتها الشخصية.

بدأت في الكلام أمام العميد في ثقة وحماس، وغضب وتحدٍّ.

كان يستمع في صبر وجديَّة، وبعد أن انتهت من كلامها قالت في حماس: يجب تحويل سامي للتحقيق؛ لقد كان وقحًا معي في اجتماع عام لمجرد أنني امرأة. أريده أن يتحول إلى التحقيق هو ومايسة أيضًا.

نظر إليها العميد وهو يسند خدَّه براحة يده، ثم قال: قلبك أسود يا هناء.

قالت في حماس: هو من بدأ.. هو. وأنا أطبق القانون لا أكثر. من يخطئ يجب أن يعاقب. وأيضًا أريد التحقيق مع أي معيد يعطي دروسًا خصوصية. ليس عندي أي دليل مادِّي بعد. عندما أجد الدليل سوف أبدأ التحقيق، حتى لو حققت مع كل القسم. حضرتك

تفهم ضرورة البحث العلمي، وضرورة التعامل مع الجامعة باحترام. عندنا معيدون وأساتذة مساعدون في الأربعين، ولم يحصلوا على الدكتوراه بعد..بسبب عملهم المستمر والدروس الخصوصية. أريد أن أحوّلهم إلى وظيفة إدارية، لا يمكن أن نستمر في إعطائهم فرصًا وهم لا يستحقونها، بينما الشباب المتحمس للجامعة يحتاج إليها. كل هذا بسبب الدروس الخصوصية، وعدم الولاء للجامعة أولًا!

هزَّ رأسه بالإيجاب قائلًا في استسلام: لك ما تريدين يا هناء.

لم تتوقع انتصارًا سريعًا كل هذه السرعة! نظرت إليه، وأمعنت النظر ثم قالت: كل ما أريد.

قال في حماس: أنا أدعمك يا هناء، وأقدر مجهودك وعملك الدائم، ولك زيادة في المرتب أيضًا!

تفحصته من جديد. عيناها لا تتركان عينيه، فابتسم قائلًا: تعرفين؟ تعليق شخصي أريد أن أقوله لك.

قالت في ثقة: تفضل يا دكتور.

- في مصر.. لا يوجد من يثبت نظره على نظر غيره وهو يتكلم معه هكذا. عيب. فاهمة يا هناء؟ يعني ممكن في أمريكا تنظرين لعين المتحدث معك، ولكن ليس في مصر. ودائمًا تثبتين نظرك عليَّ هكذا..هذا غريب.

قالت مسرعة وهي تحاول إنقاذ الموقف: بالطبع لا أقصد أيَّ إساءة!

تمتم لنفسه: هناك سبب لوجود كل عانس في مصر!

قالت في حماس: توافق على التحقيق؟

- نعم، على التحقيق، وعلى إلغاء الدروس الخصوصية، وعلى فلسفتك في إدارة الأمور.

ابتسمت في انتصار، وقامت قائلة: شكرًا على وقتك يا دكتور.

قال في لامبالاة: وأنت تمضين ورق سلمى! هي تستحق هذه البعثة.

ابتسمت في تهكم! يا لسذاجتها!

قالت في هدوء: ولكن بقية القسم لا يوافق. كل الأساتذة رشَّحوا غيرها.

- و لكنني أنا أريدها أن تذهب.

- ولكن..

قاطعها في حدَّة: ليس عندي وقت لكل هذا يا هناء. أنا أستمع لكِ منذ ساعة. تمضين ورق سلمى أولًا.

قالت في صراحة: ولو لم أوافق.. فهل ستفصلني من منصبي؟

نظر إليها وكأنها اتهمته بأنه قاتل كلِّ القادة، ومتحالف مع العدو، ومزور للانتخابات: بالطبع لن أفصلك. لا، أنا عينتك لأنني أثق بك، بالطبع لن أفصلك! ولكنني سأتركك تحلين أنت مشاكلك مع القسم دون تدخل. إذا كنت تريدين مساعدتي فعليك أن تتصرفي بطريقة حسَّاسة مع هذه المواقف. هل تفهمين؟

قالت وكأنها تلخِّص كلماته: لو رفضت إعطاء سلمى البعثة فستتركني أنا وهم في حربنا، وعليَّ المحاربة بمخالبي أنا دون مساعدة منك، ولكنك لن تفصلني. ولو وافقت على البعثة فسوف تساندني؟

- وسوف أدعمكِ للنهاية، وسوف تحكمين هذا القسم طوال عمرك.

قالت مسرعة: أعطني فرصة أفكر.

- أنت تعرفين ما تريدين.

- أظن هذا ولكنني أحتاج إلى وقت. يوم أو يومين لا أكثر.

خرجت وهي تعرف ما تريد.

بالطبع لن تعطي سلمى البعثة، وهي قادرة على محاربتهم وحدها. سوف تفكر في هدوء. في طريقة لمحاربتهم.

لا، لن تعطي سلمى البعثة! على جثتها، ويكون يوم ولائها للعميد والمحسوبية والمجاملات هو يوم موت ضميرها العلمي.

أيامها طويلة ورتيبة. والشعور بالفجوة بداخلها والخَدَر في أطرافها يزداد يومًا بعد يوم.

أمسكت بشعرها وهي تتذكر أمها..كانت أمها صارمة إلى أبعد الحدود. وكانت تقسِّم شعرها ثلاثة أقسام وهي في المدرسة، ثم تبدأ في تضفيره في قوة، وكأنها تقتلع

الشعيرات من فروة الرأس، وعندما تعترض هناء وتتذمر وتقول في رجاء: ماما شعري بيوجعني .

كانت الأم تقول في حتمية: حتتعودي على الوجع.

حتتعودي على الوجع.

ولم يكد يمرُّ الكثير حتى اعتادت على الألم. شعرها المشدود بقوة، وكأن هذا هو الطبيعي. وربما طلبت أحيانًا من أمها أن تربط شعرها بقوة..فقد اعتادت أن تشعر بشعرها يكاد يقتلع من رأسها كل يوم لسنين مضت!

ما الأمر الآن؟

مجرد إحساس بعدم الارتياح، لا أكثر.

نامت على سريرها وهي تفكر..ثم ماذا؟ ماذا ستجني؟ سينتهي بها الأمر في الستين وحيدة في هذا البيت، وسوف تكتب تاريخها، ولن يقرأه أحد. وسوف تموت، ولن يتذكرها أحد. وكم تفتقده! وكانت حمقاء يوم طغت عليها المرأة وجردتها من كل شيء. كانت حمقاء يوم اشتاقت إليه كاشتياق الغواني والجواري! كانت حمقاء يوم جعلت المرأة بداخلها تصرخ وتثور.

لا بأس. هذه هي النهاية. لا بأس..ستستمر في حياتها. وستنساه بعد عام أو اثنين أو ثلاثة، ستنساه.

أخذت تداعب قطتها، وألم غريب يتسرب إلى أحشائها.. ويزداد ويزداد.

كانت تظنه ألم الفجوة بداخلها. وعندما ازداد أكثر وأكثر.. وشعرت بالدماء تتفجر بداخلها أمسكت بالتليفون.. ولم تكن تدري بمن تتصل.

صرخت وهي تمسك ببطنها.

بمن تتصل؟

لو ماتت الآن..بمن تتصل؟

من سيكتشف موتها؟

صرخت من جديد، وسارت في بطء إلى باب الشقة تنادي البواب.. وهي لا تقوى على الوقوف.

هوت إلى الأرض وهي تلهث، ولم تعد تشعر بشيء. أي شيء.

- 8 -

نزيف في الرحم. هكذا يطلقون عليه. ولا تدري ماذا يعني هذا، ولا تستطيع النطق الآن. كانت عيناها تريان أشباحًا حولها، ولسانها محبوسًا وقلبها محبوسًا وتاريخها لم تعد تكتبه. يكتبه القدر إذن. كانت حاملًا ربما..لم تسأل ولم تكن تريد أن تعرف.

ومن أجل إنقاذها كان عليهم أن يستأصلوا الرحم. لم تسأل ولم تستفسر.

كان جسدها بين يدي غريبة لا تعرفها، وليس في مقدورها الحكم على شيء، أي شيء، وما أثَّر في نفسها حقًّا هو إحساسها بأن الكثير يتحكم فيها في هذه اللحظة، وأن الكثير يسيطر عليها. الإحساس بالضعف الجسدي كان كبيرًا ورهيبًا.

وما أثَّر فيها حقًّا هو كونها امرأة يستأصلون منها جزءًا من أنوثتها في حرفية ودون استشارة. وكانت مجرد جسد على سرير ضيِّق..ضيِّق إلى أبعد الحدود. جسد ضعيف أنهكه السير. كانت مجرد جسد مُستلقٍ على سرير محايد ليس به أي خصوصية.

كل شيء كان محايدًا، السرير، الملاءة، الجسد، الوجوه. لم يختصها أحد بالكره أو بالحب. كانت لا شيء.

كانت جسدًا على سرير محايد لا أكثر.

لم تكن الدكتورة هناء..أو هناء.

كانت امرأة على ملاءة بيضاء وسرير ضيق تنزف حتى الموت. امرأة مثلها مثل أم خالد وشيماء وصفاء وليلى ولبنى ومايسة والكثيرات.

تحتها ملاءة بيضاء، وفوقها ملاءة بيضاء. امرأة لا أكثر.

وعندما كانت بين أحضانه كانت امرأة لا أكثر.

وعندما كانت تريده كانت امرأة لا أكثر

وعندما بلغت الأربعين كانت امرأة لا أكثر.

وعندما فقدت عذريتها كانت امرأة لا أكثر.

وكان ضعفها يدفع بها إلى الهاوية، وجسدها يدفع بها إلى الموت والدماء والتلف.

شعرت بيد تضرب على خدِّها في رفق. يد طبيب..فتحت عينيها. قال في محايدة ولامبالاة: هل أنت بخير؟

هزَّت رأسها بالإيجاب.

قال في نفس الصوت المحايد: نتصل بمن؟ زوجك؟ عائلتك؟

قالت في صوت ضعيف وقوي: لا، لا تتصل بأحد. أنا بخير، أليس كذلك؟

قال في شيء من الدهشة: نعم، ولكن يجب أن تبقي هنا أسبوعين على الأقل. متأكدة من أنك لا تريدينني أن أتصل بأحد؟

قالت في نفس الصوت: لا.

قال في لامبالاة: وأنت ستدفعين أَجْرَ المستشفى؟ البواب اتصل بالإسعاف. أنت المسئولة عن الدَّفْع؟

قالت والألم بدأ يطفو على السطح: نعم.

ربت على كتفها: ارتاحي الآن. الممرضة سوف تأتي بمسكّن. الألم ربما يكون حادًّا في البداية، هذه عملية كبيرة، ولكنك بخير. أنت امرأة قوية.

بعد أيام ربما أو أسابيع ستعود إلى البيت وقطعة منها قد ذهبت إلى الأبد..ستعود إلى ظلام الحجرة وصوت قطرات المياه الآتي من الحمام، الصوت الرتيب الممل.

ستعود إلى المطبخ القديم ورائحة التاريخ والموت والوحدة والنافذة الطويلة والنغمات التي تتناثر حولها من الخارج..نغمات حزينة وكئيبة.

ستعود لتحارب أخاها، وتطلب منه مصاغ أمها..ستعود من جديد إلى الليالي الطويلة، والسرير المريح الفخم، والنجاح الساحق الذي يسحق كل شيء.

أغمضت عينيها.

ألم رهيب في بطنها.

لا تريد أن ترى أحدًا، ولن تخبر أحدًا. لا نظرات شفقة ولا تَشَفٍّ ولا ضعف ولا...

تنهدت وشعرت بالباب يفتح في بطء. كانت مغمضة العينين وكانت تعرف أنه هو، وكانت تشعر به وتعرف أنه سيأتي.

فركت أصابعها في عصبية كما تفعل عندما تشعر بتوتر هائل، وقالت في قوة وهي تفتح عينيها في بطء: خالد!

ابتسم. ولم تكن تعرف ماذا تستشف من الابتسامة.. شفقة، تشفِّيًا، خجلًا، حزنًا.. لا تدري.

قالت في سخرية ممزوجة بمرارة: ذنبك يا خالد..ظلمتك إذن، وهذا جزائي..هل أعترف بكل ذنوبي الآن وأطلب المغفرة؟

جلس على المقعد بجانب سريرها، وبدأت أصابعه في تلقائية تداعب ذراعها في دوائر حول الأنابيب البارزة منه، وهمس: كل ذنوبك..اطلبي المغفرة من أجل كل ذنوبك..كلها..بالطبع جئت أتشفَّى منك، وأراك تطلبين المغفرة..آه دكتورة هناء..لماذا فعلت بي هذا؟

قالت في قوة وألم: مللتك ومللت كل قيودك وصراعاتك وغرورك.

قال في سخرية: من يتكلم عن الغرور؟ يا دكتورة، الغرور كلمة اخترعوها لوصفك.

قالت في مرارة: اذهب يا خالد..لا أريد أن أراك الآن..أعتقد أن الطلاق سيكون في هدوء وبلا مشاكل.

قام في هدوء.

لم تكن تتوقع هذا. أدار وجهه عنها.. ثم فتح النافذة، وضع يديه في جيبيه وأطل برأسه من النافذة. ثم ردَّد: في هدوء وبلا مشاكل.

لم تكن ترى سوى ظهره، ولم تكن تعرف بما يشعر به، وكانت تود لو دفعت عمرها لتعرف بما يشعر به الآن. فضول طاغٍ سيطر عليها.

ساد الصمت برهة، ثم قالت في تحدٍّ: تحبني؟

همس وهو يثبت عينيه على منور المستشفى المظلم: أعشقك.

أغمضت عينيها من جديد.. شعرت بعَبَراتٍ في عينيها لا تتساقط.. أبدًا لا تتساقط.

لم ينطق ولم تنطق.

قالت في عصبية: لا أريدك أن تراني هكذا..أرجوك، ارحل من هنا.

لم يزل يثبّت نظره على المنور المظلم وقد اكتشف فأرًا صغيرًا يعبث بين

الزبالة..يقفز ثم يختفي..يعود من جديد فيعيد الحياة للزبالة..ثم يختفي، وكان ينتظر عودة الفأر في شوق مفاجئ وكأن الفأر رمز الحياة وسط النفايات والظلام.

وهل يستطيع الفأر مقاومة العفن والقاذورات، والحائط القديم، والنفايات التي تنهال عليه من كل مكان؟ ولو لم يخنقه العفن..لو كان قد اعتاد العفن والرائحة الميتة فهل سيعيش وسط الظلام والأحجار الثقيلة والكل يريد القضاء عليه.. وطعامه ربما يكون مسمومًا..أو جزءًا من مصيدة لا يراها، ولن يراها سوى بعد فوات الأوان؟!

مسكين الفأر.. لن يعيش طويلًا.. مصيره أن يتعفن.. ويصبح هو نفسه جزءًا من قاذورات وظلام المنور!

قال في هدوء: أنا لا أنظر إليك يا دكتورة، ولا أريد أن أنظر إليك الآن.

قالت في عصبية: فقط اذهب.

كان ينتظر قدوم الفأر، ويتمنى قدوم الفأر..شعر بحركته وسط الزبالة. كان مدفونًا وسط الزبالة ويتحرك في ثقة وحماس. وكأن الفأر لا يأبه بكل هذا.. وكأنه لا يشعر بكل هذا..كان ساذجًا وصغيرًا ولديه قدرة هائلة على الحياة. وكلما قفز الفأر أمامه..شعر براحة هائلة.

لم يجب.

ولم تطلب هي ذهابه من جديد.

بعد دقائق ضغطت على الزر وكأنها نسيت وجوده وانتظرت مجيء الممرضة. دخلت الممرضة وهو لا يتحرك.. ولا يتكلم.

قالت هي في لهجة الأمر التي ما زالت تتقنها: عايزة أروح الحمام..اسنديني.

ابتسمت الممرضة في رتابة، وأمسكت بذراعها لتساعدها على القيام. لم تكن دكتورة هناء ترتدي سوى رداء المستشفى الأزرق الباهت المربوط من الوراء. وكان رداءً محايدًا يفتقد اللون والشكل والشخصية. وكانت تشعر بوجهها الأصفر وقد سيطرت عليه التجاعيد تمامًا، وكانت تشعر بالعجز الكامل والتعب والضعف، وأنوثتها تدفع بها إلى الظلام واليأس.

أسندت الممرضة ظهرها بيد قوية وبلا أدنى حنان، فقامت في صعوبة وهي تحيط بطنها بذراعيها، وكأنها تخفي حسرتها وهزيمتها.

أدار وجهه، فجأة. نظر إليها.. كانت تحاول الوقوف والصمود..تلقي بكل قوتها على ذراع الممرضة.

تسمَّر مكانه لحظات وعيناه على وجهها، على جسدها، على ذراعيها.

نظر وأمعن النظر إلى رداء المستشفى، إلى قطرات الدماء التي تركت آثارها على الرداء، ولم تزل تترك آثارها الآن على الأرض. كانت تتسرب منها الدماء في هدوء كالسارق المحترف.

تحرَّك فجأة في سرعة ودون تفكير..انحنى وأخرج منديلًا ورقيًّا من جيبه، ومسح الدماء التي تتسرب منها. ثم أحاط ظهرها بذراعيه في قوة، وقال للممرضة: اذهبي أنت. أنا زوجها.

هزَّت رأسها بالإيجاب دون أدنى دهشة، وتركته ورحلت.

لم تعترض، وكأن قوتها قد خارت إلى الأبد. فتح باب الحمَّام وهمس في أذنيها: ماذا تحتاجين؟

قالت في شيء من الهستيرية وهي بالكاد تتنفس: أنا بخير..فقط مرهقة وفقدت الكثير من الدم..ولا يجب أن تراني هكذا، ولا أن ترى دمي هكذا، ولا أن تكون هنا، ولا أن تسندني، ولا أن تبقى معي، ولا أن أحتاج إليك، ولا أن...

بلعت ريقها، وأخذت نفسا طويلًا، وصمتت.

دخل معها الحمَّام، ثم أمسك بها من جديد، وأسند ظهرها بذراعه حتى وصلت إلى السرير وساعدها لتتمدد عليه.. وهي تشعر أنها عبرت المحيط في ثوان. انحنى من جديد، وبدأ يمسح قطرات الدم التي سقطت منها وهي تنظر إليه في فزع وذهول، ثم قالت: لماذا تفعل هذا؟

قال في تلقائية: لا أدري.

قالت فجأة في قوة وكأنها تفهم كل شيء: نعم..كنت تريدني ضعيفة..تحتاج إلي وأنا ضعيفة، كرهتني وأنا أقوى منك، وأحببتني وأنا أضعف منك.

قال وهو يمسك بيدها في قوة: ربما.

- هذه هي الحقيقة.

قال وهو يجلس بجانبها على السرير: بالطبع أنت تعرفين كل شيء. ولا بد ألّا أعارضك، وألا...

كانت تعرف أنه يريد أن يأخذها بين ذراعيه، ولم تعترض، ولماذا تعترض؟

قرَّبها منه في حنان، وألقى برأسها على صدره والحنان ينسكب من قلبه كما لم ينسكب من قبل.

ضغطت على كتفه بيدها وهمست: هذا أفضل..أفضل بكثير..لا أريد أطفالًا بلا أب.. والآن يمكنني أن أركِّز في عملي.. وهذا الرحم الخائن الذي كان دومًا مشكلتي انتهى ومات، ولم يعد جزءًا مني. وغدًا ستتزوج من غيري وتنجب وتعمل، ولا أريد أن أراك يا خالد أبدًا..أبدًا، وسوف أعيش من أجل علمي. لم يعد لي غيره.

مرَّ بأصابعه على شعرها المبتل من عرق الرحلة الشاقة إلى الحمام، وقال في تأمل: أنا أتزوج، وأنت تعيشين من أجل العلم.. هذا ما تريدين؟

قالت في تأكيد: نعم، هذا هو المنطق السليم.

- ماذا لو عشت أنا من أجل العلم وأنت تتزوجين؟

نظرت إليه في عتاب وهي تبتعد عنه بعض الشيء: ليس هذا وقت المزاح.

- أنا فقط أسأل..هذا يبدو لي المنطق السليم.

- منطقك كان دومًا مختلفًا عن منطقي.

- لم يعد عندي منطق يا دكتورة..قتلتِ منطقي مع أول يوم أغويتني فيه وأعطيتني هدية لم أطلبها.

- و لم تكن تريدها.

- و لماذا أخذتها إذن؟ هيا يا دكتورة..أعيدي رأسك إلى صدري..الكلام المنطقي نسمعه طوال الوقت في الراديو والتليفزيون..المنطق السليم يمليه علينا الأقوى والأغنى.

أعادت رأسها إلى صدره، وهمست فجأة في ضعف: الآن بماذا تشعر؟ بالشفقة؟ بالحب؟ لا أنا آسفة، أحيانًا أتصرف كالبنات الساذجات وأسأل هذه الأسئلة و.. أريد أن أنام.

وضع رأسها على الوسادة، ثم دَسَّ ذراعه تحت رأسها وكأنها طفلته، واستلقى

بجانبها وهمس : أحبك يا دكتورة هناء..أحبك.

قبَّل جبينها، وهمس من جديد والكلمات تريحه هو، ويقولها لنفسه أكثر ممَّا يقولها لها، وأريدك. ولا أريد غيرك.. ولا آبه بالعالم.. وفقدت عقلي وأهدافي وعمري.. ولم أعد أريد غيرك.

لم تنطق. ابتسمت في هدوء. أمسكت بيده، قربتها من قلبها..احتضنتها وأغمضت عينيها.

همس في شيء من السخرية: لا تصدِّقي أي شيء مما قلت!

هزَّت رأسها بالإيجاب.

- لا بأس.

ألصقت يده بقلبها، وضمت ركبتيها إلى صدرها كما تفعل دائمًا، وهمست: غدًا ستنسى.. غدًا ستتزوج، وسأعيش أنا من أجل علمي ومنصبي و...

مرَّ بأصابعه على شعرها المبتل من جديد، وقال: بالطبع غدًا ستعيشين من أجل منصبك، وستغيرين العالم، وسوف تأتين بالكرامة والعدالة لشعب اعتاد الفساد والظلم.. والآن ستنامين بين ذراعي، وغدًا ستشهد مصر عصرًا من الديمقراطية على يديك يا دكتورة هناء..تصبحين على خير.

سمع أنفاسها تهدأ، وشعر بيدها ترتخي، وذهبت في نوم عميق.

بقي ساكنًا، قريبًا منها. لم يكن يريد سوى أن يكون قريبًا منها، ووسط كل الأشياء المحايدة في الغرفة لم يكن هناك سواهما.. هما فقط. في عالم باهت ويفتقد الفردية. كانت هي كل الألوان والأشكال والمشاعر بالنسبة إليه، وكان هو كل الفرحة والحزن واليأس بالنسبة إليها. أنابيب ملتصقة بذراعها، التصقت يومًا بذراع غيرها، وستلتصق يومًا بذراع غيرها. وكانت أول امرأة في حياته، وكان أول رجل في حياتها. تعلما معًا معنى الخصوصية والخداع والحروب والصراعات. والآن وسط كل العقاقير والعذاب والألم كان يريد أن يكون معها، قريبًا منها لا أكثر.

فتحت الممرضة الباب وقالت: أنا آسفة يا أستاذ. ممنوع أن تبقى معها في الغرفة ليلًا.

ابتسم قائلًا: أنت من أين؟

- من بولاق.

- يعني جيران.

اعتدل في جلسته، ثم قام. وضع يده في جيبه، وأخرج عشرين جنيهًا، وقال: واسمك ايه؟

- نوال. بس ممنوع...

قاطعها وهو يضع العشرين جنيهًا في جيب قميصها الأبيض: طلعنا بلديات يا نوال. خليني النهارده بس.

هزَّت رأسها بالإيجاب في شيء من التردد، ثم قالت: ماشي بس متخرجش من الأوضة.. لو حد شافك...

- مش حخرج لحد الصبح.

ابتسم وهو يشعر بالارتياح. ثم أخذها بين ذراعيه من جديد.

لو عرفت أنه رشا الممرضة.. فسوف تلومه. ولكنها لن تفهم أبدًا أن نوال لا تفعل هذا فقط من أجل العشرين جنيهًا، بل من أجل مساعدته أيضًا.. لن تفهم أن الرشاوى ليست دائمًا من شرير لشرير. وفي الغالب في مصر هي من غلبان لغلبان آخر.

لم يكن ينوي تركها. لا الآن ولا من قبل. لا لم يكن ينوي أن يتركها تكتب هي التاريخ أبدًا. منذ البداية وهو يحاول نزع القلم من يدها، ولم ييئس يومًا. وكان البواب يعرف رقم هاتفه، وكان قد أوصاه أن يخبره كل شيء عنها أولًا بأول. ولم يكن ينوي إعطاءها الفرصة أن تحاول الكتابة من جديد أبدًا. لا يحب ما تكتبه، لا يحبه ولا يريده.

وعندما جاء الصباح وفتحت عينيها كانت بين ذراعيه، وكان يعلن سيطرته عليها تمامًا. ابتسم وهو يسند ظهرها وقال: صباح الخير يا حبيبتي.

ولم يقل حبيبتي من قبل. كان مختلفًا. كان ملهوفًا عليها، ويحاول أن يبدو طبيعيًّا، ويحاول أن يظهر تحكمه في مشاعره، وشعرت بشيء من الفخر.. حاولت هي أيضًا أن تخفيه. فخر لم تفهمه. فخر لأنها تستطيع التأثير عليه كل هذا التأثير.

قالت في شيء من الاطمئنان: كيف نمت في المستشفى؟

- لديَّ طرقي غير المشروعة!

ابتسمت وعيناها تتحركان تجاهه وهو يفتح النافذة المطلة على الشارع، ثم النافذة المطلة على المنور، ولا يطمئن على الفأر. يعرف أنه سيجد طريقه وسط النفايات. يعرف أن الفأر سيعيش..

قال في حماس: ماذا تريدين على الإفطار؟

همست في صوت ضعيف: لا أريد شيئًا.

أمسك بمعصمها وقال في رقة: يجب أن تأكلي.. كثيرًا.. انظري إلى معصمك..

قالت في تلقائية وهي تمسك ببطنها: خالد ألن تذهب إلى الجامعة؟

- لا لن أذهب إلى الجامعة. سأبقى معك.

فتحت فمها لتعارضه وأغلقته من جديد. تحتاج إليه معها، وتريده معها.

دخل الطبيب في لامبالاة، نظر إلى خالد في دهشة قائلًا: من هذا؟

ابتسمت في فخر وهي تمسك يده: زوجي.

قاس الطبيب نبضها، وأعطاها بعض المسكنات، ثم انصرف.

أخذ يداعب شعرها في حنان وقال: هل تشعرين بألم؟

أمسكت ببطنها والحزن بدأ يخيم عليها من جديد: بعض الشيء.

- ما رأيك في صينية كنافة؟

- ماذا؟

- تحتاجين الكثير من السكر.. بقلاوة إذن؟

- أنا لا أحب...

قاطعها: لا يهم. هذا علاج.

- علاج بالحلويات؟

- أفضل علاج.

قام من السرير قائلًا وهو يتجه إلى الباب: لن أتأخر.

قالت في تلقائية: لا تتأخر. لا تتأخر يا خالد.

أخذت تنظر إلى ساعة الحائط. تنتظر عودته. وتحاول ألّا تفكر في الألم. ماذا لو لم يعرف بوجودها في المستشفى؟ ماذا لو عرف ولم يأت ليراها؟ كانت تتوقع أن تمر بالخسارة والألم وحدها. والآن لا تعرف إن كانت تستطيع. كل الشجاعة والحرية والاستقلال تلاشت مع أول ضربة ألم مزَّقت أحشاءها. لو كان هناك إنسان في هذا العالم تريده بجانبها فهو خالد. خالد فقط.

عندما عاد. نظر إليها من جديد وهو واقف على الباب. عبس وجهه. سقطت الحقيقة على رأسه. هي في المستشفى..كانت بين الحياة والموت. كل تلك الأنابيب والمسكنات وكل الإرهاق والألم اللذين يبدوان على وجهها. وتشبثها العجيب به الآن. ولم يكن تشبثًا مفتعلًا. كان يعرف ويشعر بهذا.

دخل، اقترب من السرير، وجلس أمامها وهو يتحاشى عينيها، وقال في حماس: انظري ماذا اشتريت لك؟

ابتسمت وقالت في إرهاق ومفعول المسكن بدأ يتلاشى: ماذا اشتريت؟

- حلويات وبطاطس مقلية وكفتة وكبابًا وكوتشينة وكتبًا ولبنًا و...

قاطعته والألم بدأ يسيطر عليها: لماذا لا تنظر إليَّ؟ لماذا لا تنظر إليَّ كثيرًا؟

لم يجب.

قال في حماس: ستأكلين أولًا، ثم تشربين الكثير من اللبن.

عضَّت على شفتيها حتى لا تصرخ وهمست: اخرج من هنا يا خالد، أرجوك.

نظر إليها..أمسك بيدها وقال: سأنادي على الطبيب. هناء..

صرخت: آه!

قال في فزع وهو يحاول أن يخلص كفَّه من كفِّها: هناء..سأنادي على الطبيب.

همَّ بالقيام فأمسكت به، تشبثت بيده قائلة في حيرة: لا تتركني.

قال في تلقائية: سأنادي الطبيب. لن أتركك.

تركها في توتر وذهب يبحث عن الطبيب. ودقَّت هي الجرس للممرضة.

عاد بعد دقائق، وقال وهو يجلس بجانبها على السرير وهي تمسك ببطنها وكأنها تعتصرها: سيأتي يا هناء. دقائق وسوف يأتي.

كانت تتنفس في بطء، وكأنها تقاوم الصراخ، وأغمضت عينيها. فتحت كفَّها له، فأمسك به، وقال وهو يبتسم في دفء ويحاول أن يسليها عن الألم: سمعت أنك استبدلتِ بي قطةً!

ابتسمت من وسط آلامها وقالت: القطة لم تأكل منذ يومين..خالد..

- حبيبتي..لو طلبت مني أن أراعي قطتك وأنت في المستشفى فسأقتلها! بلاش يا حبيبتي! المنافسة قوية.

ابتسمت من جديد وهمست: أنت أفضل من القطة.

- شكرًا على المجاملة.

فتحت فمها، فهمس: أغمضي عينيك ولا تفكري في الألم. سيأتي، دقائق وسوف يأتي.

جاء الطبيب. أعطاها مسكنات.

قالت في خجل بعد دقائق وهي تستدير عنه وتحاول أن تنام: أنا آسفة. كنت أتصرف بطريقة غريبة.

قال في غضب.. غضب من مرضها ومن المستشفى ومن نفسه ومن كل شيء. حنق على العالم: آسفة لماذا؟ تكلَّمي.. اصرخي، أنت إنسان، تشعرين كالبشر. يمكنك أن تتألمي.

نظرت إليه. أطالت نظرها إليه، ثم قالت في حيرة: خالد.. أنت طبِّب قوي.

ابتسم في تهكم: لا يوجد أحد طبِّب قوي. لا تثقي بي كل هذه الثقة يا دكتورة.

قالت في مكر: اليوم أثق بك. غدًا لن أثق بك. هل ستبقى معي؟ اليوم على الأقل وغدًا..ليس للأبد بالطبع.

أحاط وجهها الصغير بيديه، وقال في سخريته التي افتقدتها: سأبقى معك..يومًا أو يومين، وليس للأبد بالطبع.

كان يعرف ماذا يريد. من البداية وهو يعرف ماذا يريد. هي. هي من هزَّت حياته في غربال كبير. هي بعنفها وبخلها وأنانيتها وعنادها وتحدِّيها وغرورها وتوحُّدها ولهفتها عليه وشوقها إليه وضعفها وخوفها وعصبيتها، وكل الأشياء التي كان يكرهها في المرأة.

هي الدكتورة هناء.. وليس صفاء، وليس غيرها، وليس من ترعاه وتأخذ بأزره. ويا ويله ويا حسرته على عمره الضائع.

لا بأس، فلتعمل.. فلتنجح..فلتفكر فيه أحيانًا وليس طوال الوقت.. فلتطلب منه غسل الملابس.. لا، إلاَّ هذا.. سوف يستأجر خادمة ويحل المشكلة، ثم سيشتريان غسالة أطباق وغسالة ملابس، ونشافة ولن يبالي لو لم يجد الإفطار صباحًا.

ما دامت بين ذراعيه.. لماذا يحتاج الرجل إلى امرأة سهلة وبسيطة؟ ما يحتاج إليه هو مختلف. يحتاج إلى ضعفها وهي بين أضلعه، وقوتها وهي بين الناس. لا يدري..يريدها هي ولا يريد غيرها.

ولكنه لا يريدها رئيسته، ولا يريدها أن تقهره كما تفعل دائمًا. يريدها مثله.. إلى حد ما.. يريدها امرأة تحتاج إلى رجل، وتريد رجلًا..يعشق ضعفها ويخشى قوتها.

وعندما يحطم سلطتها.. ماذا يتوقع؟ أن تعود إليه في تخاذل؟

لن يفكر الآن..ستصبح زوجته..سيعرف العالم أنها زوجته، وسوف يقضي بقية عمره يحاربها ويحاربهم ويحارب نفسه.. وسوف يموت شهيدًا في غمرة الحرب ضد كل شيء. ولا يبالي.

هناك حرب في الخارج وحرب في الداخل.. وهو سيكسب الحرب في الداخل.. لأنه يفتقدها ويريدها ويعشقها ولن يفكر. مجنون إذن! وغريب الأطوار.. وشاب وقوي ويعشق عشقًا لا يفهمه أحد ولن يفهمه أحد. ولا يريد وصفه.

ماذا لو لم تعد إليه؟

أبدًا.. لن يفكر في هذا الاحتمال..لا يستطيع.

كان يزورها كل يوم، ويبقى معها معظم اليوم، وبالكاد يفعل أي شيء آخر. يذهب إلى الجامعة من حين إلى حين، ويسمع الأخبار والكلام عن مرض الدكتورة هناء في صمت. ولسبب ما كانت أيام المستشفى سعيدة بالنسبة إليها وإليه. كانا يقضيان كل الوقت معًا كزوج وزوجة ولا أحد يعرفهما. لا توقعات، لا تاريخ قديمًا لا أشياء ثمينة، لا بيت، لا سجاجيد، لا مطبخ، لا كتب، لا شيء يعنيها أو يعنيه. كانت تعرف أنها ستتذكر دومًا ستائر المستشفى البيضاء في حب؛ لأنه كان دومًا يفتحها صباحًا، ويبتسم لها في براءة وحماس وعشق للحياة.

وبعد أسبوعين عادت إلى بيتها وكان معها طوال الوقت. ولم يزل يذهب إلى الجامعة، ولم يزل يستمع إلى كلمات الأساتذة ومؤامراتهم. وكان يعرف ماذا يريد. وكان يعرف أنه لا يريدها رئيسة القسم، وشعر بخنقة غريبة وهو يزن ما بين غضبها ويأسها وحبها!

وكانت تريد قطع رزقه ورزق غيره، ولم يكن يحب هذا. كان يعشقها ولا يريدها رئيسة للقسم. كان يعشقها، ويريد تحطيم حلمها في ثوان.

ولم يفكر في مشاعره المتضاربة. ولم يفكر في الاحتمالات.

همس سامي في أذنه: نهايتها اقتربت، ربنا هدَّها علشان نعرف نخلص منها.

بلع ريقه وقشعريرة تسري في جسده، وكره غريب واحتقار لسامي يسيطران عليه.

قال في هدوء مصطنع: ماذا تنوي؟

ابتسم سامي في ثقة: الكثير من التجاوزات التي اكتشفتها.

قال في إصرار: هي أبدًا لا تتجاوز القانون.

- بالفعل مشكلتها أنها تنفذ القانون بحذافيره، وهذا في حد ذاته تجاوز.عبد الحميد أعدَّ بعض الأوراق، وسوف نذهب للعميد..

قاطعه في حدَّة: لا تفعل هذا.

نظر إليه في ذهول.

تمالك نفسه وقال مجددًا: دكتور سامي، من رأيي ألَّا تتدخل أنت، وإلاَّ فسيظن العميد أنها مكيدة. أنا عندي حل آخر.

- ما هو؟

- أعطني فرصة.

- أخبرني أولًا ما هو.

- أعطني فرصة أسبوعين لا أكثر.

- و إذا لم تنفذ وعدك؟

ابتسم ابتسامة صفراء: أعطني فرصة يا دكتور سامي.

- لماذا؟

- لماذا ماذا؟

- لماذا تكرهها كل هذا الكره؟

بلع ريقه في ألم، ثم قال: تحاربني في أكل عيشي.

- و لماذا لا تتركني أنا أتعامل معها؟

لم ينطق. نظر إليه سامي، ثم قال: أنا لا أفهمك يا خالد. ربما أفهمك..لا تريدني أن ألفِّق لها تهمة، أليس كذلك؟

- بالضبط.

- أنا لا ألفِّق أيَّ تهمة لأحد. هي فعلًا تجاوزت، وتعاملت مع عبد الحميد بإجحاف وظلم، وهو قدم شكوى لرئيس الجامعة، وهي أيضًا حجبت ميزانية المؤتمرات عن ثلاثة أساتذة، بحجة أن قدراتهم ضعيفة، واستعملت المال في شراء كتب للمكتبة من صديق في أمريكا بالطبع. وهل تريد المزيد؟ وموضوع البعثة..

ابتسم في تهكم، ثم قال: دكتور سامي.. هذه ليست التهم التي ستذهب للعميد بها.

- خالد..

- لا يهم. أعطني فرصة.

- أنت جدع يا خالد.. وابن بلد، لكن بتعرف تسلك، عندك مستقبل.

كانت الدموع تنهمر بغزارة على وجهها المجعَّد العجوز، وكانت تؤلمه، وتشعره بالعجز من جديد.

لم تكن تبادله الحديث إلاَّ للضرورة القصوى، وفي معظم الأوقات تدعو على زوجته، وفي الأوقات المتبقية تبكي بغزارة.

قام في إصرار، وأمسك بيد أمه وقال: ماما، تعالي معايا شوية.

سارت وراءه في استسلام وهي لم تزل تدعو على زوجته.

سمع صوت أخته تصيح: تفعل هذا في أمك؟ لماذا؟ من أجل امرأة؟ هي لا تستحق يا خالد. هناك واجبات ومجتمع، وواجب تجاه أمك وأختك و...

قاطعها في حسم: اسكتي.

ثم نظر إليها وهو يحاول فهم تعذيبها المستمر له.. ولم يكن يعرف بالضبط سبب حماس أخته الشديد إلى هدم حياته!

جلس على السرير أمام أمه في حجرته وقال: لا أستطيع.. فقط لا أستطيع. لكل إنسان قدرة. إن الله لا يكلف نفسًا إلا طاقتها. لا تكلفيني أنت ما لا أطيق. أنت أمي.

صرخت من بين دموعها: دي مَرَة لا راحت ولا جت! دكتورة ولا مش دكتورة! زيها زي غيرها يا بني.. حتبيع أمك علشان ست؟!

قال في هدوء: لن أبيعك أبدًا.. ولكنها الآن زوجتي..فات أوان تركها.

قالت في غيظ: بريالة قدّامها زي الرجالة اللي بنسمع عنهم.. لا حتجيب لك ولد ولا بنت، ولا من سنك، ولا من توبك.

صمتت، ثم قالت في لوم وكأنها اكتشفت ابنها يدخن لأول مرة: تحبها؟

قال في تلقائية: أريدها زوجتي..لا أريد أن أطلقها..أريدها معي.

- تحبها كالمراهق! يا رب يجازيها ويهدّها يا رب.

كان يتوقع كلماتها ويعرفها.

وقفت أخته أمام الباب في تحدٍّ، ثم قالت: لماذا تفعل بنا هذا؟

نظر إليها في صرامة قائلًا: روحي أوضتك يا شيماء، واقفلي الباب.

صاحت أمه: ليه؟ دي بنتي وخايفة عليَّ!

فكَّر برهة، ثم قال من جديد وهو يستعمل كل الأسلحة: أمي، لقد عشت عمري كله أفكر فيما يسعد الآخرين، والواجب والصح والمجتمع والعائلة والمسئولية والفقر والتعليم، وأنت وأبي وأخي وأختي... شيء واحد أحتاج إليه وأريده ولا أريد غيره.

- شيء خطأ.

- ما الخطأ في زوجتي؟

- لن تنجب.

- لا أريد سواها.

- ستندم بعد فوات الأوان.

- ربما.. فلننتظر الندم.

- إنها امرأة، مجرد امرأة! لماذا هي؟

وكانت المناقشة تعود دائمًا إلى نفس النقطة من جديد.

- لا أدري.. الآن أريدها.. أرجوك.. فقط اتركي لي فرصة مرة واحدة أعيش لنفسي.

فتحت فمها، فقال مسرعًا وهو يُخرِج مفتاحًا من جيب بنطلونه: هذا مفتاح شقة الهرم التي اشتريتها.. هي لك.

قالت في دهشة: ألن تتزوج فيها؟

قال في صرامة: هي لك، وعندي مفاجأة أخرى.. حجزت لك في العمرة هذا العام، وإن شاء الله السنة الجاية تطلعي الحج.

أمسكت المفتاح، وقالت في شيء من الغضب: تظنني أريد مالك.. تظنني أطمع فيك؟

- بالطبع لأ.. ده واجبي يا ماما.

قالت في إصرار: ولكني لا أريدها أن تعيش في هذه الشقة، ولا أن تستغلك أكثر مما تفعل.

لم يجب. فكر لثوان، ثم وجد الحل الأمثل.

قال في هدوء: أنا لا أحبها. بالطبع لا أحبها وهي لا تستغلني.

نظرت إليه في دهشة، فأكمل مسرعًا: بالعكس أنا أحتاج إليها للحصول على الدكتوراه، وإلا فلن أحصل عليها أبدًا. فقط أحتاج إليها وأرتاح معها. حب إيه! كما قلت.. هي ست مجرد ست. بالطبع لا أحبها.

تنهدت وهي تمسح دموعها، ثم قالت: هل ستزورنا..أم ستنسى أمك؟

- كل يوم. سأزورك كل يوم.

- و هي، هل ستزورنا؟

قال وهو يقوم: لا يهم. هي ليست مهمة. لماذا تزورك؟

قالت في غيرة: ستذهب إليها الآن بالطبع كالعادة وتتركنا.

همس في رقة: هي مريضة. حرام أن أتركها. أذهب إليها أم آتي بها لتعيش هنا معك؟ أم في شقة الهرم؟

قالت مسرعة: اذهب إليها.

احتضنها. قبَّلته وقبَّلها، ثم طلبت منه أن يأكل معها، وكان هذا هو إعلان لسيطرتها عليه وحبه المتواصل لها.

شعر بارتياح غريب لرضا أمه، ورغبة قوية في أكل الحلويات الشرقية مع أمه وأخته وصديقه.

ابتسم لمحمد وأمه تضع الحلويات أمامهما وتجلس في صمت. لم تكن سعيدة، ولكنها لم تكن غاضبة وباكية ولم تُقِم الدنيا وتقعدها على رأسه، ولم تستعمل الأسلحة المشروعة وغير المشروعة، والقوة التي تملكها كأم، وطاعة الوالدين، وكل هذا.

قال محمد وهو يتحسس بأصابعه أطراف الطبق، وكأنه يريد تعريفه أولًا قبل أن يأكل منه: هل أقنعتها؟

همس في ارتياح وإرهاق: لن نتكلم عن أي شيء.

ساد الصمت ومحمد لم يزل يتحسس طريقه إلى طبق الحلويات الشرقية. كان يشعر بالسكّر يلتصق بيديه. وكان السكر دافئًا ويختلج بين أصابعه.

ثم وقعت أصابعه وسط قطعة من الهريسة الطريَّة المفرولة في الوقت نفسه. وكانت أصابعه تحب لمس الحلويات خاصَّة، وكانت الحلويات تشعره بدفء وأمان. ضغط على قطعة الهريسة بين يديه، وشعر بمسامها الضعيفة تسحق وتستسلم في شوق وخشوع ويأس.

هريسة!

ولم يكن يريد هريسة.. كان يريد بقلاوة أولًا ثم كنافة.

قال لخالد في حيرة: الحاجَّة معملتش بقلاوة؟

ابتسم خالد. لا بد أنه ابتسم. فخالد يبدو سعيدًا. وأمسك بقطعة بقلاوة، ثم أمسك بيد صاحبه في ثقة، ووضع البقلاوة فيها في تلقائية كما كان يفعل دائمًا.

ضغط محمد على قطعة البقلاوة الهشة.. وكانت هشة وقوية ورقيقة، وسمع صوتها

وهي تتحطم في يده، وتذوب في فمه، وكانت البقلاوة أقوى من الهريسة بكثير وأجمد.. ملمسها جامد وكأنها ورقة بردي قديمة تتفتت في لحظات عندما تستسلم لليد القوية.

بقلاوة!

أما الكنافة فلم يكن محمد يحبها كثيرًا! ولم يفهم هذه الشعيرات الملتصق بعضها ببعض، يتشبث بعضها ببعض في خوف وعزيمة جبارة على البقاء. كانت أيضًا قوية وجامدة، وكان خالد يعشقها.

كنافة!

نظر خالد إلى ساعته قائلًا: نصلي المغرب، ثم علي أن أذهب.

- ما دامت أمك تصنع هذه الحلويات فأنا أريد العيش هنا.

قام خالد وأمه تسير معه بعينيها في حب وولاء.. احتضنها من جديد، ثم خرج ووراءه صديقه.

جلست الأم في شيء من الحسرة، شيء من الحيرة وهي تنظر إلى مفتاح بيت ابنها، ولا تدري ماذا تفعل به!

قالت ابنتها في حماس وهي تجلس بجانبها: ماما.. هي شالت الرحم..مش انت قلت لما الست تشيل الرحم جوزها من حقه يتجوز عليها؟ طبعًا حيسيبها. أكيد حيسيبها!

نظرت إلى ابنتها في فزع: إيه الكلام ده؟ عيب يا شيماء!

- إنت قلت كده. أنا سمعتك. بكرة حيسيبها.

صمتت الأم برهة ثم قالت: أخوك لن يتركها.. ربما لن يتركَها أبدًا. مصيبة، اختبار من الله! وعليَّ تحمله. لن أرى طفلًا له وأنا حية!

قالت شيماء في ضيق: لن يتركها! كيف عرفت هذا؟! بتقري الغيب؟

- علشان خالد ابني اللي شيلته في بطني تسع شهور وأنا عارفة ابني، وعارفة بيفكر إزاي.

- بيفكر إزاي؟

- شوفتي بيعامل محمد إزاي.. خالد متعود يساعد ويتحمل المسئولية، وبيحب يراعي غيره، وكمان المصيبة إنه بيحبها! والراجل لما يحب.. الراجل اللي زي أخوكي لما

يحب..يبقى خلاص.

- خلاص إيه؟

- خلاص سبيني في حالي. وروحي شوفي مذاكرتك! وخلاص متتكلميش معاه. إياك تتكلمي معاه تاني لحسن يبطل ييجي وينساني خالص.

- 9 -

كسب الجولة الأولى، وكان يعرف أن هذه بداية الحرب وليست نهايتها، ولم يكن يأبه بشيء سواها..أي شيء. الصراعات واللوم والقهر وكل ما يمرُّ به وسيمرُّ به.

كان يضغط على ظهرها وهي مستلقية على بطنها على السرير ويهمس: هل هذا أفضل؟ بماذا تشعرين؟ أما زال يؤلمك ظهرك؟

- هذا الألم يكاد يقتلني!

ضغط من جديد على ظهرها، وهمس في سخريته المعهودة: عندما تقولين أنت هذا فهو ألم لا يحتمل بالطبع!

- ماذا فعلت مع أمك؟

- هي بخير.

- أنا لا أسأل على صحتها يا خالد.

- عَمَّ تسألين إذن؟

- كيف أقنعتها؟ هل أقنعتها؟

- وماذا يهمك في هذا إذا كنت ستتركينني على أي حال؟ أم أنك غيَّرت رأيك؟

بدت لمسته رقيقة الآن وليست قوية على ظهرها.

قالت في عصبية: لا تضغط بكل قوتك!

- أنا لا أضغط بكل قوتي!

- بل تضغط بكل قوتك! أريد أن أعرف!

قال وهو يضغط بقوة هذه المرة: تحبك..أمي تحبك وتحترمك. هي سعيدة جدًّا بزواجنا.

ضحكت في تهكم: جدًّا!

قال وهو يهمس في أذنيها: جدًّا..كانت أمنيتها أن أتزوج بمن تسعدني وتحقَّقت.

فتحت فمها، فقاطعها وهو يهمس في أذنيها: أريد أن أمارس الحب معك من جديد.. افتقدتك.. كم افتقدتك!

أدارت وجهها..نظرت إليه..ثم ربطت نظرها بالأرض وهي تفكر فيما قال الآن. شعرت بخجل غريب من نفسها وضعفها وكل ما فقدته، وكأنها هي المسئولة عن الفقدان الكبير. والمرض مُخْزٍ.. ومذل.. وهي تكره الخزي والذل.

ودون أي مقدمات انهال عليها ضعفها وأنوثتها وذلّها وتحكم الطبيعة فيها كما قالت أختها يومًا! والدفعة التي ألقت بها في بئر عميقة.. والخوف من الوحدة، ومن الموت، ومن أن تحتاج إلى يد تسندها كل يوم ولا تجدها.

تساقطت الدموع أخيرًا بغزارة وهي جالسة على السرير وهو أمامها. تساقطت وأرعشت الكون من حولها.

لم يتوقع هذا. فاجأته كما تفعل دائمًا. لم ينطق ولم يتحرك. بدأ بكاؤها في التزايد المستمر.. بدأ بكاؤها يأخذ شكلًا جديدًا لم يره من قبل. أربكه وأخافه.

همس في حيرة: لماذا؟

أخذت تمسح دموعها في عصبية وصوت بكائها يخترق الحائط: أنا بخير..لا شيء..فقط المستشفى و..صعبانة عليَّ نفسي شوية..

وكان دومًا ضعفها المصطنع أحيانًا، الحقيقي أحيانًا أخرى هو ما يحرّكه ويتحكَّم فيه، وكان كونها قوية ثم ضعيفة الآن هو ما يقلقه ويخيفه ويهزُّه ويشلُّه تمامًا.

بدأ يشعر بها وبهزيمتها وعجزها وخجلها وعدم ثقتها في أنوثتها وخاصَّة عجزها..

وكان الشعور بالعجز هو المحرك الأساسي مِنْ حولهما، وهو ما يجمعهما الآن.

نظر إليها ولم يتحرك.. ولا هدَّأها، كان يعرف ضرورة البكاء أحيانًا والوحدة والدماء.. وفقدان شيء عزيز.

بعد برهة..

احتضن وجهها بيديه، وقبل وجهها قبلات متناثرة، وهمس من بين قبلاته: هذا يكفي يا هناء. كفّي عن البكاء يا حبيبتي.

هزَّت رأسها بالإيجاب وهي لم تزل تنشج بالبكاء.

مارس الحب معها، وما يجمعهما أكبر من لحظات نشوة. شعور بالعجز والشوق والخوف والتوتر والاندماج الكامل والفهم المتبادل والحنان والتحدي لكل شيء..

وبينما هي تنبض بالحياة من حوله، بينما عقلها يتناثر كذرات المياه بين ذراعيه.. كانت الدموع تنهمر بغزارة غريبة. وكان يعرف أنه لن ينسى هذه اللحظات أبدًا.

بعد أن مارس الحب معها.

كانت تحرك أصابعها على صدره حيث يكمن قلبه، وكأنها تمسك بقلم ما وتكتب شيئًا ما..وكانت أصابعها تعرف الطريق إلى صدره وقلبه.. والدموع لم تزل تبلل عينيها.

همس في أذنيها: هناء.. أنت أحلى امرأة رأتها عيني، والوحيدة التي أريدها دومًا وأبدًا. هل تفهمين؟

نظرت إليه من بين دموعها.. ارتجفت أصابعها للحظة، وكأن القلم تلعثم وحارَ بين يديها.. ثم أبقت كفها على قلبه، وقالت وكأنها تحاول السيطرة على القلم المتلعثم الحائر: قلتَ هناء! ألم أقل لك من قبل؟ قلتَ هناء من جديد! لا ترفع الكلفة بيننا!

ابتسم قائلًا: لا أستطيع التركيز وأنا معك في نفس الحجرة! ونفس السرير! اعذريني هذه المرة.

ساد الصمت وكفها ينبض بنبضات قلبه، ثم قالت: ماذا تتوقع؟

- لن نتكلم عن التوقعات..احكي لي عن شيء آخر.

- لم يسأل عني أخي وأختي.

قال في هدوء: كيف يسألان عنك وهما لا يعرفان شيئًا؟!

- لأنهما لا يسألان عني شهورًا.

قال وهو يضمها أكثر إلى صدره: هناء.. أقصد دكتورة هناء.. وجود القطة يشعرني بالتهديد. أواثقة بأنك تريدين القطة؟

ابتسمت قائلة: لا تتكلم في جديَّة أبدًا.

قال في جديَّة: بتكلم جد جدًّا. هذا أفضل وقت أطلب منك فيه التخلص من القطة..أم أن خدماتها لك أفضل من خدماتي!

همست في شيء من الدلال وهي تقبّل كتفه: خالد..

قال في جديَّة: هل ستقولين أحبك يا خالد أكثر من القطة!

- لا تشغل بالك بقطة!

- و لن تقولي أحبك.

- لن أقولها أبدًا

- كنت أعرف هذا. هذه هي الدكتورة هناء التي أعرفها. الآن فقط اطمأننت عليك.

شعر بآثار كدمات في نفسها وبجزء يعجز عن الوصول إليه. في أعماق أنوثتها، ومهما فعل يعجز عن إزالة الكدمات. وكان يعشقها كل يوم بقوة وخوف وهزيمة وشيء من تأنيب الضمير الذي عادةً ما يختفي سريعًا.

هي إمَّا أن تكون حبيبته وإما رئيسته، ولا يمكن أن تكون الاثنتين معًا، ولا يجرؤ على أن يخيِّرها ويخشى لو أعطاها الاختيار أن تختار أن تصبح رئيسته، ولن يستطيع تركها. استقرَّ في نفسه منذ الصغر أنَّ كتابة التاريخ المصري مستحيلة، وكتابة التاريخ بقلمه مستحيلة، وأنَّ كتابة تاريخه الشخصي واجب عليه. هو كان دائمًا يحرك مصيره ويكتب تاريخه في تحدٍّ. ربما علاقته بالحكومة علاقة حاكم ومحكوم، ولكن علاقته مع الآخَرين علاقة قوة وسلطة.

وكان يؤلمه قلقها المستمر على منصبها وهي مريضة، وكانت تقول من حين إلى حين: ماذا يدبرون لي؟ لماذا لا يتكلم معي العميد؟ عليَّ أن أعود إلى العمل.

دائمًا يقول: فكِّري في صحتك ونفسك.

ولسبب ما لم تذهب إلى العمل، وكانت كل طاقاتها موجهة إليه هو، وللكلام المستمر معه، ولانتظاره، ولأحضانه، وكان يحب هذا التغيُّر المفاجئ ويتمناه للأبد.

ولم يكن هناك صراع بداخله، كما لم يكن هناك صراع بداخله قط من ناحيتها. كان يريدها، وكان يريد إزالتها من على العرش.

عليه التخطيط الهادئ ووزن كل الأمور والاحتمالات.

وعندما خرج يوم السبت صباحًا كان يعرف أنه سيرى دكتور سامي في بهو الجامعة، وأن دكتور سامي قد سئم الانتظار، وأنه لو لم يتصرَّف سريعًا فسوف تخرج من رئاسة القسم بفضيحة وتهمة!

وقف ينتظر مقابلة العميد وقد حزم أمره.

نظر إليه العميد من وراء نظارته الصغيرة ثم قال: خالد..كيف حالك؟

قال في صوت هادئ وميت ربما: بخير!

- جئت تتكلم معي عن موضوع مهم.

- عن الدكتورة هناء.

قال في تهكم: الكل يتكلَّم عن الدكتورة هناء..أنت أيضًا تريد دكتورة مايسة كرئيسة للقسم؟

قال في ثقة: نعم.

قام قائلًا: سأفكر في الأمر.

- هي زوجتي؟

نظر إليه لثوان، وكأنه لم يسمعه، ثم قال: الإشاعات التي سمعتها كانت تقول هذا. لم أصدقها..هي حريصة جدًّا، ولن تفعل شيئًا كهذا، وأنت.. لماذا جئت لتخبرني بهذا؟

قال في صراحة: لأنني أعرف أن هناك تهمًا ستلفق لها، وأن هذه التهم ستكون ظالمة وستحطمها!

قال في تهكم: بيدي لا بيد عَمْرو! تريد أن تحطمها أنت قبل أن يحطموها هم.

- كونها زوجتي لن يسيء إلى سمعتها، ولكن كونها لصة ومرتشية سيسيء إلى سمعتها.

ابتسم قائلًا في هدوء: منطق رجل.. ماذا أقول؟ رجل يريد امرأة لنفسه! يقصُّ ريشها لتنسى الطير. تحبها؟ بالطبع تحبها! وماذا أيضًا؟ تتحداك في أكل عيشك؟

شعر بعدم ارتياح وهو يستمع إلى العميد يعريه هكذا.

أكمل العميد في تأمل وكأنه قد شاهد للتو مسرحية هزلية: المرأة كائن غريب حقًّا! كانت تحترم كل القوانين وتعطي ولاءها الأعمى للجامعة، ثم ماذا؟ تتزوج سرًّا من طالب عندها، تشرف عليه وترأسه! أين الضمير العلمي؟

فتح خالد فمه ليدافع عنها..فقاطعه العميد: أنا أعرف بالطبع. هناء لم تكن يومًا سهلة

في المعاملة أو في الفهم! وما أخطر المرأة التي لا تستطيع فهمها!

سكت العميد لحظات، ثم قال: لك ما تريد يا خالد.. لك ما تريد. معك قسيمة الزواج بالطبع.. ولكني لا أحتاج إليها. شكرًا يا خالد.

ترك الحجرة في شيء من الهذيان، شيء من الاختناق.

لم يعد إلى البيت. ماذا لو كلمها العميد الآن؟ ماذا لو كانت تحتاج إليه؟ ماذا لو بكت و..؟

لا، لن يفكر في هذا. هي قوية، هي ستتحمل، هي تريده، لن تتركه!

فقدت كل شيء.. وماذا فعل ليساعدها؟ احتقر نفسه لثوان، ثم تنهد وهو يشعر بإرهاق شديد. لم يساعدها قط. لم يساعدها.

دفن رأسه بين يديه، وجلس في حجرة المعيدين يستنشق رائحة الطباشير والكتب القديمة والنفتالين. ولم يعد إلى البيت.

ماذا فعل؟ ما رَدُّ فعلها؟ لا لن يندم. هو يريدها، وهي تعرف هذا!

نعم ستسامحه! وسيعشقها كما يتمنى وكما يريد، وسيعوضها، وسيغمرها ويغطيها.. ويخنقها بالطبع ويميتها!

ماتت دمعة في حلقه.

وبقي في مكانه، وكأن كل حواسه قد أصيبت بخَدَرٍ مزمن، ولم يتحرك لساعات.

وكان يرى أمامه مرَّة أخرى الفأر الصغير في منور المستشفى وسط النفايات والعفن والجدار القديم والظلام. ولم يكن يدري إلى متى سيعيش الفأر. وكم أشفق عليه! وعلى سذاجته وإصراره على البقاء. كان يقفز.. ويختفي.. ويراوغ.. ويختبئ.. ويظهر فجأة ويجري فجأة.

كان يفيض بالحياة، وكانت أطرافه صغيرة ومرنة، وكان حجمه ضئيلًا، ولونه باهتًا، وجسده قذرًا، وذيله رفيعًا يتحسس كل شيء في يأس وجرأة.

ماذا لو هرب؟ وأين يذهب؟

وهل عليه العيش دومًا بين النفايات وبقايا الماضي وأشلاء الفقر؟

وهل للفأر من مخرج؟

هو آمن في المنور المظلم، وجائع وتائه خارج المنور، وميت بالتأكيد خارج المنور.

الظلام يعطي الأمان.

والتاريخ يعطي الدفء.

والعفن يساعد على الاسترخاء.

والقاذورات تعطي الاستقرار.

أما الجدار القديم فيعطي الإحساس بالثقة بالغد.

الثقة بأن الغد قادم لا محالة، والجدار دائم لا محالة، والعمر ضائع لا محالة، والهزيمة مكتوبة عليه لا محالة.

وبقي في مكانه، وكأن كل حواسه قد أصيبت بخَدَر مزمن، ولم يتحرك.

سمع خطوات صديقه، وكان في حاجة إليه!

قال محمد وهو يجلس بجانبه: مسكينة الدكتورة هناء.

لم ينطق.

- أصل دي بلد مش بتقدَّر العلم.

لم ينطق.

- خالد..ماذا بك؟

همس في صوت مبحوح: لا أعرف ماذا فعلت.. أعتقد أنني كسرتها، ولا أدري هل يمكن إصلاح ما كسرته!

قال محمد في حيرة: لماذا كسرتها؟

- أنت تعرف لماذا؟

- كنت تريدها لنفسك؟

- بالطبع. ولم يكن عندي الشجاعة لأعطيها الاختيار.

- أنت لا تعطي الاختيار لأحد أبدًا!

- هل تظنها ستعود إليَّ؟

قال في تهكم: هل أظنها ستعود إليك؟ هل أظنها ستعود إليك؟ لا، بالطبع لن تعود إليك.. لكن صفاء لسه موجودة!

قال في عصبية: لم أفعل أيَّ شيء.

- قلت لك صفاء موجودة!

- لماذا تقول هذا؟

- ماذا تريدني أن أقول؟

- فقط قل إنها ستعود إليَّ.

- ستعود إليك.

- قل الحقيقة!.. هل تظنُّها ستعود إليَّ؟

- لماذا لا تذهب إلى البيت وترى إذا كانت ستعود إليك.

قال في تلقائية وهو يقوم: نعم، لا بد أن أعود إلى البيت.

ولم يعد إلى البيت.. انطلق بسيارته إلى الأهرام.في ظلام الليل، وكان يعرف أنه لن يستطيع أن يقترب كثيرًا من الأهرام.

لا، لن يستطيع الاقتراب كثيرًا.

ولم يلفت انتباهه الفقر والبؤس والجحور والشوارع الصفراء الجرداء على جانبي الطريق. لم يلفت انتباهه الفقر، فهو من هؤلاء، ويعرفهم، وصديق الحرمان والفقر طوال عمره. وهو يشعر بالراحة معهم. ومع أن حاله الآن أفضل بكثير من حالهم فهو واحد منهم. واحد محظوظ لا أكثر. ما لفت انتباهه حقًّا هو الإعلان الكبير وسط كل هذا، يقف على واجهة عمارة قبيحة، يقف كالمارد العملاق الهش ويقول: إذا كنت تحلم فنحن سنحقق كل أحلامك!

ابتسم في أسى على المارد والإعلان والشركة التي اختارت الفقر والبؤس مكانًا للتجارة والثراء.

ماذا تبيع الشركة؟ لا يدري. وما الأحلام التي ستحققها؟ لا يعرف.

نظر إلى الهرم الأكبر من بعيد.

وهذا يكفي. دومًا الأهرام تشعره بالثقة والراحة.

آه من هذا الزمن الذي نعيش فيه وما يفعله بالبشر!

هل أخطأ لأنه أراد أن يأخذ القيادة.. أن ينزع القلم ويكتب هو؟ وهل عليه أن يبقى متفرجًا إلى الأبد؟ مَنْ في مصر يكتب ويمسك بالقلم؟ من يتحكم في أي شيء وكل شيء. وكان كغيره قد اعتاد الاستسلام لذرات الرمال الملوثة تعبث بعينيه كيفما تشاء.

وكغيره لا يتدخل فيما لا يعنيه، ولا يحاول تغيير أي شيء.

كان كغيره يستسلم لأصحاب القرار، ويترك الريح تأخذه، وتطيح به كما قال عبد الحليم!

على حسب الريح، ما يودي الريح، ما يودي الريح، ما يودي!

وياه أنا ماشي، ماشي، ماشي ولا بيدي!

وكانت جزءًا من مصريته.. كانت العزيمة والاستسلام والصبر والعشق كلها جزءًا من مصريته.

وفي وقت يعجز فيه عن أن يحرك يده ليزيح الغبار عن عينيه وعن بيئته وشارعه وجامعته وبلده.. في وقت العجز التام واليأس القديم قدم التاريخ..كان رجلًا يتمنى امرأة ويريد أن يكتب تاريخهما معًا! هل من العدل أن يستمر غيره في الإمساك بالقلم؟

ما دامت حياته يشكّلها غيره. وما دامت شخصيته يرسمها غيره ويعكسها غيره وينتقدها غيره، وما دامت حياته أصبحت محاطة بزجاج يحبسه ولا يستطيع لمسها، فقد أراد أن يسيطر على هذا القلم فقط. على سعادته الشخصية!

فلم يعد هو سوى مصري يكتب عنه بعض الناس، ويطالب بعض الناس بحقوقه من على منبر ومنصة وعرش، ولا أحد يستمع إليه ولا أحد يعرفه.

أصبح مصريًّا يكتب الآخَرون أخطاءه، ويُوَقّع عليها هو دون أن يقرأ.

اعتاد منذ القدم الاستسلام والهزيمة واليأس والسخرية.

ولكن خالدًا مختلف. خالد كان يريد أن يحقق أحلامه الشخصية على الأقل لو لم يستطع تحقيق أحلامه القومية!

كان خالد يريد امرأة واحدة، وكان صبورًا ومتحديًا، وعنده جلد المصري القديم الذي

بنى الأهرامات ليمجد غيره، وحمل الحجر الثقيل لسنين من أجل لقمة العيش والحياة البسيطة.

كان يتمنى القليل ولا يندم. ولماذا يندم؟!

الآن عليه العودة إلى البيت. نعم عليه العودة إلى البيت.

- 10 -

بلع ريقه وشعر بالحسرة تكاد تقتل عينيه وأذنيه. احمرت عيناه. أغمضهما لثوان. عُمْرٌ مرَّ به وليس نصف ساعة للبيت. ربما لن تعرف اليوم. ربما لن يخبرها العميد اليوم. لماذا كل هذا القلق؟

سار في خُطًى متثاقلة وقلب خائف ولم يندم. لا، لم يندم. فتح الباب بمفتاحه ودخل.

كانت تجلس في الصالة على المقعد الكبير. نظرت إليه. التقت أعينهما. أغمض عينيه لثوان وهو يرى الحزن الدفين في عينيها. ستنفجر في البكاء أو ربما تنفجر فيه. سيعرف بعد ثوان.

فتح عينيه.. ذهب إلى مقعدها. لم تتحرك.

جلس على الأرض، وهمس وهو يمسك بيدها بين يديه: هناء..

صمت لحظة، ثم قال: كانت هناك عدة مؤامرات..كانوا يريدون تلفيق تهم لك. إذا لم أفعل هذا كان سيفعله الدكتور سامي. هل تفهمين؟

لم تنطق.

قبّل كفها في يأس وهمس: لم أندم..لم أندم ولو للحظة. كانوا سيتخلصون منك بفضيحة! والعميد نفسه..بسبب موضوع البعثة كان يريد التخلص منك.

أدارت وجهها عنه، وقالت في لامبالاة مصطنعة وصوت مبحوح: أنا ما زلت رئيسة القسم حتى يوم الثلاثاء عندما أقدم استقالتي.

هزَّ رأسه بالإيجاب ولم ينطق.

قالت في نفس الصوت: وسلمى لن تأخذ البعثة!

نظر إليها في دهشة، ولم يتوقع كل تلك القوة في هذه اللحظات.

قالت مسرعة وهي تنزع يدها من يده: خيَّرني بين أن يفضح أمر زواجي من طالبي ويطلب التحقيق معي أو الاستقالة! وسوف يفضح أمر زواجي بالطبع، وكان عليَّ الاستقالة، ولكن سلمى لن تأخذ البعثة. ولن يأخذها محمد، سيأخذها إبراهيم، هو

يستحقها.

قال في حماس: نعم هو جيد وملتزم ويستحقها!

نظرت إليه وابتسمت في جفاء، وقالت في صوتٍ ثعبانيٍّ هادئ: كنت نقطة ضعفي. لكل إنسان نقطة ضعف. أختي دائمًا كانت تقول: المرأة محكومة بطبيعتها! وضعفها، وأنت ضعفي.

لم ينطق. قام ووقف بجانب المقعد وتحاشى عينيها ولم ينطق.

- ولكنك مغلوب على أمرك بالطبع، ضحيت من أجلي، وحطمت كل ما بنيته طوال عمري!

قال في إصرار: هذا ليس كل ما بنيتِهِ.

قالت في صوت عالٍ فجأة: أنت كل ما بنيته! هل هذا ما تعتقد؟ أنني بنيت هذه العلاقة! أنني أهتم بهذه العلاقة! أنني أريد هذه العلاقة!

قال في شيء من الغضب: اهدئي يا هناء أولًا.

- أنا هادئة جدًّا!

تمدَّدت على المقعد، ووضعت ساقًا على ساق، وقالت في هدوء مصطنع: أنت يا خالد! أنذل رجل رأته عيناي! أنت يا خالد تأتي من بيئة حقيرة فيها النساء خادمات للرجال..أنت يا خالد عقلك لا يستوعب أن المرأة إنسان.. أنت يا خالد....

قاطعها في حزم: كفِّي عن هذا يا امرأة!

ابتسمت في انتصار وهي تقوم وصرخت: أنا بالنسبة إليك امرأة لا أكثر. وأنت بالنسبة إليَّ.. أنت بالنسبة إليَّ....

توقفت وكأنها تنهج، ثم صاحت بأعلى صوتها: جبان! قليل الأصل! نذل!

شعرت ببحة في صوتها وكل جسدها يرتعش. غضب يهزها حتى النخاع!

هوت على المقعد وجسدها ينبض بذرات النار.

نظر إليها والغضب يحرقه هو أيضًا! أمسك بكوب كان على المنضدة، ودفع به إلى الحائط في قوة. وكان مستعدًّا أن يضحي بكل أكواب مصر حتى لا يصفعها الآن!

فاجأها لثوان، وخرجت منها رجفة صغيرة من هَوْل المفاجأة.

ثم تمالكت أعصابها من جديد.

انحنى على المقعد الذي تجلس عليه، وأسند يديه على ذراعي المقعد وكأنه يريد إيقاعها في فخّ جديد، واقترب منها وقال في هدوء القنبلة الموقوتة: إيَّاك! إيَّاك أن تتكلمي معي هكذا أبدًا!

نظرت إليه..لم تكن تخشاه..ثبتت عينيها على عينيه، ولم تحرك عينيها، ولم تختلج رموشها، وبقي كل منهما كالثعبان المتحفز الشاعر بالخطر. نظرت لعينيه، وشعرت بأنها ترى نفسها في مقلتيه. ترى نفسها تنسحق تحت قدميه. يحطِّمها ويسحقها ويغرقها..يجعلها كالورقة المبتلة..حروفها مبهمة وبلا أية قيمة.

كانت تترقب هذه اللحظة وتعرفها.

هو شرقي.. وهو رجل.. وهو شعبي.. وهو سوقي.. وهو.. الآن يعلن سيطرته عليها تمامًا، ويكلِّمها من أعلى، وهي ضئيلة، وهي بين يديه ليعبث بها كيفما يشاء.

تحوَّلت نظرتها إلى شيء من الاشمئزاز، ثم أدارت عينيها عنه، وقالت في لامبالاة: اضربني ياخالد.. ماذا تنتظر؟ فأنا امرأة وضعيفة وغبية، وأحتاج إلى تأديب، وأنت رجل، وتتحمل المسئولية، وتطعن من الظهر.

قال في صوت بارد يعجُّ بالغضب وهو لم يزل ينظر إليها وينحني على المقعد: لقد تصوَّرت نفسي أضربك.. كثيرًا.. ربما أفعل هذا يومًا لا أدري.. وأعرف أنني يوم أفعل سأحطم شيئًا ربما أندم على تحطيمه... ولكن الآن تساورني الفكرة كما لم تساورني من قبل! نعم أنت امرأة لا أكثر.

وتحتاجين إلى تأديب.. الكثير من التأديب.

كانت تتمنى كسره.. تتمنى هزيمته! ابتسمت في سخرية قائلة: هذا ما جعلني أكره الرجال والزواج! اليوم الذي ينحني فيه رجل ويملي شروطه كالحاكم المستبد، ويا ويلي لو اعترضت!

ترك ذراعي المقعد وأدار وجهه عنها فأكملت: مريض أنت وأمثالك..الضعف يُعَشِّش في قلبك..إذا كنت تريد أن تضربني فلتفعل هذا الآن..فقد حطمت هذا الشيء عندما طعنتني من ظهري.

ثم قالت في بطء وكأنها تريد نقش الكلمات على وجهه: انتهى كل شيء بيننا.

قال وهو يرفع كتفيه في لا مبالاة: حسنًا.

ذهب إلى حجرة نومهما، فتح الباب في عنف ثم أغلقه في عنف، وبدأ يلملم أشياءه من الحجرة ويضعها في حقيبته والغضب لم يزل يحرق أذنيه وعينيه وقلبه!

تملكها الغيظ كما لم يتملكها من قبل. سارت إلى الحجرة، وفتحت الباب، وصرخت من جديد: لا تغلق الباب هكذا! ستدفع ثمنه لو كسرته.

نظر إليها وهو يتكلَّف الهدوء، ثم قال: بكم الباب؟

ولو كانت هناك لحظة تمنت فيها قتله فقد حانت!

قالت في صوت ثعباني: لن يكفيني فيه عمرك!

بدأ في إغلاق الحقيبة وقال: أكسره الآن إذن لتقتليني، أهذا ما تريدين؟

بلعت ريقها وكأنها فقدت عقلها، وقالت وهي تحاول السيطرة على نفسها: لن تحصل على الدكتوراه ما دام في صدري قلب ينبض. سأموت أولًا.

لم يجب.

اتجه إلى الباب. صاحت وهي تسير وراءه: جبان.. تطعن من الظهر..جبان و.. كنت تريد تركي، أليس كذلك؟ كنت تعرف أنني سأتركك.. أم كنت تظنني سأبقى معك لأنني فقدت كل شيء.. كنت تظنني سأصبح الجارية التي تتأملك كل يوم في إعجاب وخشوع كما تفعل أمك وأختك وكل النساء من حولك!

فتح باب الشقة فصاحت: كم أكرهك الآن! وإيَّاك أن تدفع بالباب في عنف! سأقتلك لو فعلت!

دفع الباب في عنف.

فاتجهت إلى الباب وذرات الغضب تحرقها، ولكمت الباب في غلٍّ لم تكن تعرف أنها تملكه. ثم همست في شبه هستيرية: يجب أن أهدأ، هذا لن يجدي..لقد رحل.

انهمرت الدموع من عينيها.

هي.. هي تستحق كل هذا.. هي في لحظة ضعف أدخلت هذا الرجل حياتها.

بدأت ذاكرتها تأخذها إلى سنين مضت..إلى فتاة في العشرين في قمة نضارتها.. إلى حب هادئ أحبته لشاب دون أن تعرف أي شيء عنه أو تسأل من يكون.. رامي..

ترى لو كان مسلمًا.. لو كان من نفس الدين..هل كان سيتزوجها؟

كان يردّد دائمًا: كل سفينة ولها ريس واحد، والراجل هو الريس، والست هي التابع.

لم تكن تحب هذه الكلمات، وكانت تحب هدوءه وتردده، ولم تشعر قط برغبة في أن تمزقه إربًا!

لم يدفع بها إلى حائط ويلقي بقطعها المتناثرة للهواء ينعم بها!

كانت مشاعر هادئة.

فهل عليها إذن أن تتقبل هزيمتها في صمت؟

غدًا.

نظرت إلى السجادة العجمي القيِّمة..في الصالة التي تجلس فيها. نظرت إلى الأشكال والألوان..

وكأن أحدًا لم يدخل حياتها!

نعم، كأن أحدًا لم يدخل حياتها.

غدًا ستبدأ من جديد.

وقعت عيناها فجأة على الحلويات الشرقية التي تركها على المنضدة، فقامت.. أمسكت بها في احتقار، وذهبت إلى المطبخ وألقت بها في كيس الزبالة!

"مُتخلّف".

نفضت يديها من العسل الذي التصق بهما. ولكن العسل لم يتلاشَ.

لم يزل يلتصق بيديها.

غسلت يديها في عصبية، ثم ذهبت إلى حجرتها، واستلقت على السرير بفستانها لأول مرة منذ أعوام.

كانت تشعر بأنفاسه على السرير ورائحته على الملاءة والأثاث كله!

يجب أن تغير الملاءة.. والبيت كله! نعم.. أو ترحل.. تذهب إلى إعارة.. فقد اكتفت من

مصر ورجالها الشرفاء!

ماذا تملك الآن؟

قطة اسمها بسبوسة!

عليها تغيير هذا الاسم فورًا..أو التخلص من القطة!

في عام واحد.. فقدت الكثير.. رحمها.. قلبها.. منصبها.. سمعتها ربما.. الكثير.

ماذا تملك سوى معصم رقيق.. وبعض الأبحاث وشقتها و.. سوف تطالب بمصاغ أمها!

نعم.

وماذا كسبت؟

لا شيء.. فقدت عذريتها.. هذا مكسب بالطبع.

لا شيء سوى الإحساس الذي أيقظه بداخلها..هذا الإحساس المزعج بأنوثتها.. وهل يستحق هذا الإحساس كل التضحية، كل الذل والهوان؟!

ماذا ستفقد أيضًا؟ لم يعد عندها الكثير.. ماذا ستفقد أيضًا؟

شعرت بأنها تختنق. وعليها الخروج سريعًا.

سارت في برودة الليل على شاطئ النيل.

جلست أمام النيل.. كان يبدو باردًا وهادئًا وعميقًا.. وكانت تكره برودته وعمقه. أغمضت عينيها، نظرت إلى ساعتها، الثانية صباحًا.. عليها أن تعود إلى البيت.. وإلَّا.. ماذا سيتوقع منها الناس.. لو لم تعد إلى بيتها؟ ماذا سيظن الرجال لو وجدوها تجلس وحيدة على الكنبة أمام الشاطئ هكذا؟ تحتاج إلى رجل.. يقيدها ويأمرها لأنها شرقية، وتحتاج إلى العسل الحلو.. الكثير منه.. لتلتصق بمكانها للأبد.

نعم تحتاج إلى العسل الحلو.. الكثير منه.. لتلتصق بمكانها للأبد.

إحساس بالضياع طغى عليها. انتهت علاقتها بخالد إذن. هذه المرة انتهت حقًّا. نعم، بالطبع انتهت. نظرت حولها إلى نهر النيل وأضواء البواخر النيلية، وكل من يسير على رصيف النهر. نظرت إلى طفل الشوارع الذي لم يتعدَّ العاشرة وملامحه تعطي انطباعًا أنه في الأربعين. ملابسه متسخة وجرح كبير ملوَّث يظهر من ركبته اليمنى وبنطلونه

الممزق. كان يستجدي المارة بوجه ميّت. ولم تكن تدري أسيقضي ليلته هنا أم سيصحبه أحد إلى مصير مهين ثم يعطيه عشرة جنيهات ليدخن بها السجائر.

وكان طفل الشوارع يخيفها. ورغبته في المال الفوري وفي صرف المال الفوري تخيفها.

نظرت إلى المارة في تردد وصقيع غريب يسري في عروقها.

مرّت من أمامها عائلة صغيرة. الأب يسير في تكاسل وتذمر. الأم ترتدي الحجاب وعباءة رمادية، وابنتاها في سن المراهقة ترتديان الحجاب والبنطلونين الجينز والروج يظلل شفتيهما.

ساروا من أمامها كالشبح. ثم سارت سيدة مع زوجها وطفلها. كانت قصيرة وسمينة، ولم تكن ترتدي الحجاب. كانت ترتدي صليبًا كبيرًا. ونفس التأفف والتذمر كان يبدو على وجهها هي وزوجها وطفلهما.

هل كل من حولها تَعِسٌ إذن؟ هل هذا هو حال البشر؟

وكانت تستمع إلى كلمات كثيرة متناثرة وأحيانًا ضحكات.

لاح بذاكرتها رامي من جديد..كان شابًّا، وكان مترددًا خجولًا، وأحبت تردده وخجله. وكان يخاف من أمه، ويعشق الحلويات الشرقية.

ثم خالد.. خالد.. ليته يموت.. كم تتمنى أن يموت. يغرق في النهر أمام عينيها. يطلب المساعدة فتضحك أمامه وتتركه يغرق.

كانت ترى خالدًا بنحافته وطوله وتفاحة آدم التي تظهر بوضوح وتلتصق بخيالها كالتصاق العسل بيديها. كان متدينًا. يصلي الفرض بفرضه. ولا تدري؛ هادئ هو أم لا؟ ولا تعرفه ولا تفهمه.

وكان يحملها ويغرقها ويفتتها ويعشقها. ولم تعد تطيقه!

وكان خالد أيضًا يعشق الحلويات الشرقية ويخاف أمه.

إلى أين أنت ذاهبة يا مصر؟ أين تهربين مني؟

ماذا يجمعنا؟ وأين رامي وخالد؟

لم يعد يجمعنا سوى الخوف من الأم والحلويات الشرقية.

وهي لا تخاف من أمها، ولا تحب الحلويات الشرقية.

وهي.. ترى حبال عمرها تتلاشى ومجتمعًا جديدًا لا تعرفه يدفع بها إلى أحضانه. وماذا أيضًا؟ ماذا يجمعهما؟

عدم الثقة بالنظام.. اليأس والتهكم والبحث عن الذات.

وهي؟ من تكون؟ ماذا يجمعها بخالد؟

لا، لن تفكر في هذا الآن.

إلى أين أنت ذاهبة يا مصر؟ إلى أين ستهربين مني هذه المرة؟ وهل سأجدك من جديد؟

وبلد من أنتَ؟ خالد أم دكتورة هناء؟

رامي أم الحاجة ليلى؟

كل الحيرة واليأس والعجز مرة أخرى.

سمعت صوت الهاتف الجوال من حقيبة يدها. ولم تكن تريد أن تتكلم مع أحد. خاصَّةً معه هو!

أخرجت الهاتف وعقلها بالكاد يعمل، وقالت في قوة وهي تعرف المتكلم: ماذا تريد؟

- أين أنتِ؟

صاحت في شبه هستيرية: لماذا تسألني..اتركني وشأني.. لن تسيطر عليَّ يا خالد.. صدقني لن تستطيع.. ألم تسأل نفسك يومًا لماذا لم أتزوج كل هذه السنوات؟.. لا تسألني، ولا تحاول التحكم فيَّ كأنك أبي وأنت تصغرني بأعوام. طلقني في هدوء.

قال في قوة: كم مرَّة طلبتُ الطلاق وأنت لا تريدينه! هذه المرة سأطلقك يا دكتورة.. ولكن أين أنت؟ إنك لست بالبيت..لماذا؟

صاحت من جديد: لا أحتاج من يَقْلَق عليَّ.. لقد عشت عشرين عامًا دون أن يَقْلَقَ عليَّ أحد!

قال في هدوء: هناء.. أين أنت؟ فقط أخبريني حتى آتي إليك وأتمم الطلاق.. أليس هذا ما تريدين؟

أخبرته في تلقائية.

أغلق الخط وكانت تعرف أنه سيأتي. لأنها امرأة وتحتاج إلى حماية رجل.. بالطبع سيأتي..

لماذا؟ ليطلقها؟

لأنه يحبها ويريدها؟

يحبها.. الأحمق النذل.. يحطمها ثم يدَّعي هذا!

ولكنه لم يدَّع أي شيء.

ولكنها تعرف أنه سيدَّعي هذا.

وربما لا يدَّعي شيئًا على الإطلاق. ربما يطلقها في هدوء كما قال.

سمعت صوت صفير القطار من بعيد ورائحة الدخان الآتية من كل مكان وأيِّ مكان ممتزجة برائحة الليل البارد.

وهذا البركان الذي يطيح بالقلم والورقة والتاريخ والمجد. بركان المشاعر الذي سكبه على وجهها وجسدها وقلبها دون رحمة ودون تفكير.

ماذا ستفقد أيضًا؟

لن يمسح منديله دماءها في المرة القادمة. ولا بد أن هناك مرَّة قادمة.. ومرَّات ومرَّات. سوف تكون في المستشفى وحيدة، وينعم هو بزوجته وأولاده وحياته بعد أن حطم أحلامها وبعثر حياتها!

ماذا ستفقد أيضًا؟

سوف تريحه من هذا العبء الجاثم على كتفيه، وهذا الحب العاجز الخائف المتوتر أبدًا.

وسوف تستمع إلى النغمات الحزينة، وتقرأ الأدب العالمي، وتنشر أبحاثها، وربما يقرؤها إنسان ما في بلد ما ولا يدري من تكون هي، ولن يدري حتى ما إذا كان اسم هناء اسم رجل أو امرأة.

سوف تفني نفسها للعلم.. وربما تحاول من جديد.. فمنصب رئيس القسم لها هي، وهي تستحقه، والعميد سيرحل يومًا، وسامي سيموت يومًا! وكانت هي تتسم بالصبر.

نعم الآن تفكر بهدوء ومنطق.

ماذا ستفقد أيضًا؟

عندما انتزع الزمن منها رحمها في لامبالاة، وكأنه قطعة لحم عفنة نسيتها امرأة في الثلاجة قبل أن ترحل إلى عالم جديد.

خالد..

أغمضت عينيها والعجز يطفو على السطح..خالد..يتلاشى المنطق في ثوانٍ، ويبقى الكره والغضب واليأس والضعف ..

كان حنونًا..كان ملاكًا..كان يفهمها أحيانًا حتى قبل أن تنطق، وكثيرًا ما لمس خوفها ويأسها، ومسحه بمنديله في حرفية وإتقان!

ولكنه ليس ملاكًا.. ولكنه سيحيا في سلام.. وينساها، ويتزوج وستحارب هي من أجل ماذا؟

ما فقدته يصعب استعادته.

وفي بلد أعطت ولاءها له كالخادم المطيع لم تجن سوى الهزيمة!

هل سيستمر الكل في السير في رتابة وكأن شيئًا لم يكن؟

وسوف تبقى هي تشاهد في صمت وإحباط وبقية عمرها يتلاشى..أم ستترقب يوم تسيل دماؤها من جديد؟

أم ستنتقم من الجميع؟

ماذا ستفقد أيضًا؟

وقد كسرها الفقدان الكبير.. ولكنه لم يفقدها الوعي ولا القوة.

لا..

قالت يومًا لرامي: هل أجرؤ على أن أحلم؟ وقال: لا.

ربما كان على صواب.

من يجرؤ على الحلم في بلد اكتشف سرالتحنيط وافتخر بالاكتشاف؟!

نعم.. من يجرؤ على الحلم في بلد اكتشف سر التحنيط وافتخر بالاكتشاف؟!

خالد.. يجرؤ على الحلم وعلى العشق والمحاربة والتحدِّي والطعن من الظهر والانتصار وقبول الهزيمة، واستعمال كل أنواع الأسلحة والدروع.

خالد كان يجرؤ على كل شيء وأي شيء!

أهذا ما جذبها إليه؟ هذا الخجل والصمت والتحدِّى والغموض والاستسلام المصطنع والصبر..الكثير من الصبر.

وهل ستتركه يحيا في سلام بعد كل ما فعله بها؟!

سينام ليلته ويتزوج ويسافر إعارة وينجب الأبناء ويوفِّر لأولاده، وسوف تطيعه زوجته في خشوع، وسوف تدعمه، وسوف تعطي وتعطي.. وسوف تساعده على خلع جاكتته، ثم تنفضها في احترام وتقدير، وكأنها تنفض كأس العالم، ثم تقبّلها في شوق وتضعها في الدولاب.

وهذا مستحيل!

وهذا لن يحدث.

وهذه هي هزيمتها الأخيرة!

شعرت به كما تفعل دائمًا حتى قبل أن تراه.

شعرت بأنفاسه. بيده على ظهر الكنبة وقشعريرة تسري في جسدها، ولا تدري أهي قشعريرة الكره له أم الشوق إليه، أم الاثنان معًا. ولا تريد أن تعرف.

همس في رقة فجأة: هناء..

صاحت في صرامة: دكتورة هناء.

قال في قوة: لا، هناء فقط..هناء المرأة..

ابتسمت في جفاء: المرأة التي جرَّدتها من سلطتها!

حملق في النيل وقال: لم أندم..هذه النهاية أفضل من نهايات أخرى. لقد تركت منصبك وأنت في القمة ولستِ في القاع. أكان من الأفضل أن يلفق لك سامي تهمة وتتركين الجامعة في تخاذل! أنا أعتقد أنك أستاذة وأستاذة ناجحة وعالمة، وهذا أهم من منصب إداري سيضيع منك يومًا..هل تفهمين؟

- فعلتَ هذا لأنك لست واثقًا بنفسك.. لأنك..

قاطعها: فعلتُ هذا لأنك كنت تتدخلين في كل شيء، وتقطعين عيشي وعيش غيري. لأنكِ كنتِ تريدين تحطيم نظام عمره آلاف السنين.. كنتِ تريدين تغييره في عام واحد. نظام ولد مع رمسيس، وكنت تريدين أنت أن تحطميه.. نظام تربينا كلنا عليه.. هل تفهمين ما أقصد؟ كنت تريدين أن تشيع العدالة والمساواة، وهذا مستحيل. حاولت أن أوضح لك مرارًا أن من الأفضل ألَّا تغيري النظام، بل أن تساعدي من يحتاج إلى مساعدة. نحن بلد يعشق الفساد والفخر والمحسوبية.. وخدمة الأقارب والجيران.. وأنت لا تفهمين هذا.. في النهاية كنت تضرين نفسك والفقراء من حولك.

قالت في مرارة: كل هذا الذكاء! أعطني سببًا آخر مقنعًا.. لماذا لا تقول مثلًا: إنك لم تشعر بالارتياح وأنا رئيستك؟

قال في تلقائية: بالطبع لم أشعر بالارتياح وأنت رئيستي!

ابتسمت في تهكم وانتصار، ولم تنطق.

همس وهو يحيط كتفها بذراعه ويمرُّ بأصبعه على ذراعها في حنان: هناء..لا أريد أن أتركك أبدًا.

قالت في مرارة ويأس: لماذا؟ لماذا لا تتركني؟ خالد، اذهب وتزوج واحدة من بلدك. من مصر التي تعرفها.

همس وهو يحملق في النيل من جديد: أحيانًا لا نستطيع السيطرة على مشاعرنا. الإنسان إنسان و.. مصر كبيرة وتسعنا معًا.

- هي بلدك أنت. أنا لا أفهمها.

لم ينطق. ترك كتفها. نظر حوله وبقي صامتًا.. وكأنه ينتظر منها هي كلمة.. كأنه ينتظر منها الاستسلام. ولا يدري هل ستعطيه ما يريد؟

أهي حرب إذن؟ لم يكن يريدها حربًا! ولكنه يريد الدكتورة هناء. أسيرة أو حرة يريدها! لو جاءت طوعًا أو كرهًا يريدها.. مكبلة يريدها، محصنة بالدروع يريدها! ولا يدري الآن أهي مكبلة أم محصنة أم الاثنان معًا؟

قال في شيء من العصبية: ليس عليك فهم كل شيء. مادمتِ لستِ في منصب حكومي فليس عليك فهم أي شيء. لا تفهميها.

- لم أعتد عدم فهم بيئتي!

- ولكنك لم تفهميها أربعين عامًا.. لماذا تريدين فهمها اليوم؟

قال في شيء من اليأس والإرهاق: هناء.. فلنعد إلى البيت.. أريد أن آخذك بين ذراعي، ولا أستطيع أن أفعل هذا هنا. أريد أن آكل البقلاوة معك.

قالت في تلقائية: ألقيت بها في الزبالة.

- كنت أعرف هذا، لذا اشتريت بقلاوة جديدة..معي في السيارة.

نظرت إليه..لعظام وجهه، لتفاحة آدم في رقبته، لياقة قميصه، لعينيه المليئتين بالعناد والحب والتحدي.

تنهدت. ماذا ستفقد أيضًا؟

قالت في تهكم: كنتَ متأكدًا من أنني سآتي معك!

قال في جدية: نعم!

- متأكد؟

- بالطبع!

- إنني سآتي معك؟ وآكل البقلاوة وأعترف بالهزيمة؟

- وتحاربين وتتحدين وتحاولين وتنتقمين و..

صمت ثم همس: ساعديني.. أحيانًا أحتاج إلى مساعدتك لأواجه العالم..أو ربما أحتاج استفزازك لأعاندك وأصرَّ على نجاح علاقتنا.

- عنيد أنت؟

- جدًّا!

همست في توعد وهي تعرف أنها لن تستطيع تركه أبدًا؛ إنه قدرها وعمرها الباقي:

- خالد.. لقد قلت لك.. ما دمتُ أنا على قيد الحياة فلن تحصل على الدكتوراه أبدًا!

قال في تلقائية: لا يهم مادمتِ أنتِ المشرفة عليّ..

- سأحطم مستقبلك وسترى!

أمسك بيدها وقام وشدَّها معه: حطميه ونحن معًا.

- نعم ونحن معًا.. لن أتركك.. بالطبع لن أتركك تحيا في سلام أبدًا بعد ما فعلته بي!

شبكت يدها بيده، وأغلقت أصابعها على أصابعه في قوة وكأنها تنوي حبسه في سجن مظلم بين أصابعها وحنايا عمرها.

قال وهو يسير بجانبها: لا.. لا تتركيني أحيا في سلام.. لا أستطيع!.

تمت بحمد الله

عن المؤلفة

د. ريم بسيوني

■كتورة ريم بسيوني تعمل أستاذة للغويات في الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

■رست في الجامعات البريطانية والأمريكية مثل جامعة جورجتاون ويوتا في أمريكا وجامعة كامبريدج وأكسفورد في بريطانيا.

■رس ت الدك توراه والماجستير في جام عة أكسفورد في بريطانيا.

■ها كتب علمية عديدة صدرت عن أشهر دور النشر الأوروبية والأمريكية منها:

Language and Identity in Modern Egypt «2014» Edinburgh - University Press

Arabic Language and Linguistics «2012»: Georgetown, USA -

Arabic and the Media «2010»: Brill, Holland -

Arabic Sociolinguistics 2009: Edinburgh University Press/ - Georgetown University Press

Functions of Code-Switching in Egypt 2006: Brill, Holland -

■حصلت على المركز الأول في جائزة ساويرس للأدب يناير 2010 عن رواية «الدكتورة هناء».

حصلت عام 2009 على جائزة أحسن عمل مترجم في أمريكا عن رواية «بائع الفستق» من مركز الملك فهد لدراسات الشرق الأوسط. وهي أكبر جائزة للأدب العربي

في الولايات المتحدة الأمريكية.

اختارت مجلة فورورد أكبر مجلة نقد في أمريكا رواية بائع الفستق من أفضل عشرة كتب على الإطلاق صدرت في عام 2009 في الولايات المتحدة.

ترجمت رواياتها إلى الإنجليزية والإسبانية والإيطالية واليونانية.

رواية

دكتورة هناء

تسطر مصيرها بيدها على صفحات القدر دون أن تسمح لأحد بالتدخل في قراراتها أو اختياراتها، فتعتزل إخوتها وتسعى لنسيان قصة حب فاشلة، وتضع لحياتها نظامًا صارمًا لا تحيد عنه، حتى عندما قررت التخلي عن عذريتها لتتزوج بإرادتها من خالد الذي يصغرها بسنوات وتشرف هي على رسالة الماجستير الخاصة به؛ ليبدأ الصراع بين رغبتها في الحب وعشقها للقيادة، بين قيم مجتمع رفضتها و تعالت عليها، وبين قيود رجل عرف كيف يمنحها الحياة بشكل مختلف وأراد أن تمنحه مقود قيادتها، بين الإحباط والقهر والرغبة في التحرر...

كل هذا في إطار من التشويق والإثارة...

فلأيهما ستنساق؟ للحب أم للسيطرة؟

تلك هي رواية «دكتورة هناء» الفائزة بالمركز الأول في مسابقة ساويرس والمترجمة لأكثر من لغة.

تصميم الغلاف: محمد عيد

6 221133 351058

للطلب والاستفسار اتصل على
16766
www.nahdetmisr.com
our page/nahdet misr group
YouTube

دار نهضة مصر للنشر